أنأكل لنعيش ؟
أم نعيش لنأكل ؟

(أنأكل لنعيش أم نعيش لنأكل ؟)

هذه قضية القضايا فى حياة الإنسان على الأرض ؛ لأنها الحد الفاصل بين نمو الحياة ، وتوقف هذا النمو . إلا أنها تتعلق بالفرد أكثر من تعلقها بالجماعة ، ذلك لأن الجماعة لا تخلو من الحركة وليس هناك مجتمع بشرى توقف كل أفراده وشملهم السكون فى وقت واحد ، إنما التوقف يعترى الناس أفراداً . فالفرد الواحد هنا هو مناط هذه القضية ، وهى أن الحياة تشغل بعض الأفراد باعتبارها مجالا لإشباع الجسد ، ومعايشة المتعة الحسية من طعام وشراب ، وحينئذ يكون الطعام والشراب هما الأمر المستهدف فى الحياة .

غير أن الجملة لا تعنى الإشارة فقط إلى الطعام والشراب فقط ، بل تعنى أن المرء حين لا تغريه الحياة بالعمل ، وحين لا يتطلع إلى مراحل عليا من الحياة يكتفى من الحياة بوجوده فقط ، فكأنه لم يأت إلى هذه الحياة الدنيا إلا ليأكل فقط ، وكأن معيشته كلها محصورة فى السعى وراء ما تستلذ به حواسه أوما يشبع المعدة ، بينما واقع الأمر المنوط بالإنسان على هذه الأرض هو الحركة ، والسعى الدائم وراء إدراك أسرار الحياة ، والحرص الدائب[1] على مزيد من العمل ، ومزيد من المعرفة ، ومزيد من التطور .

وإذا نظرنا إلى ما فى الحياة البشرية من قوانين ونظم وآداب وأوامر ونواهٍ دينية لأدركنا أن هذا جميعه لم يكن إلا بسبب الحركة فى حياة الناس ، وبسبب الأنشطة المتعددة لوجوه الحياة الإنسانية ، فالحركة بين الناس ، والعلاقات بكل صورها ومحاولات البحث ، ومحاولات التطوير ، ومزاولة الوظائف - كل هذا وغيره يقتضى وجود القوانين والنظم والآداب والأوامر والنواهى ، ويقتضى وجود الثواب والعقاب فى الدنيا ، وبعد الممات .

---

(١) الدائب : المعتاد .

ولو تخيلنا مجتمعًا ركن أفراده كلهم إلى السكون ، فلا عمل ، ولا نشاط ، ولاسعى ، فما حاجة هذا المجتمع إلى القوانين وغيرها مما ذكر سابقا ؟ ، بل وما غاية هذا المجتمع ؟ وأى معنى يكمن وراء وجوده ؟ وإذا كان المعنى أنه مجتمع يترقب طعام اليوم ليعقبه بترقب طعام الغد ، فما غاية انتظار الطعام ، وما غاية الشِّبع ؟

فى حياتنا البشرية أفراد لا حصر لهم وقفوا حياتهم على الركود ، وأحاطوها بكسل البدن وكسل النفس ، لا يملكون همة نحو أمر من الأمور ، ولا يجدون بأنفسهم عزماً على شىء ، ولا تدفعهم أعماقهم إلى غاية أو طموح ، إنما الغايات كلها عندهم أن تمضى حياتهم فى لهو مضمونه الطعام والملبس والأقوال التى فرغت من أى محتوىً ، وحياتهم - على هذا النحو - إنما نسميها « حياة » من باب التسمية المجازية اعتبارا لحيوية أعضائهم الجسدية فقط وليس اعتبارا لحيوية النفس ، فالحيوية النفسية والذهنية ، هى الأساس و الأصل فى كل ما عاش به الإنسان على الأرض ، فلولاها ما عرف الإنسان كيف ينقب فى الحياة بحثا عن دواعى الترقى ، بل لولاها ما وجد الساكنون الخامدون الغافلون طعامهم وكساءهم وما وجدوا لهم مأوى ، فالطعام والكساء والبناء ووسائل المواصلات وغير هذا ، إنما هو صنيع الأحياء الذين استحقُّوا (اسم الأحياء) من باب الحقيقة لا من باب المجاز ؛ لأنهم يعيشون الحياة الإنسانية وَفْقًا لما تقضى به الحياة الإنسانية التي جعلها الله تعالى معيار التفرقة بين الأحياء ، والأموات ، ألا وهى حياة العمل التى يصلح معها أن نقول إنّا نأكل لنعيش ، بما تحمل كلمة العيش من الحركة والنشاط وَجوْبِ الآفاق .

فالسؤال السابق (أنأكل لنعيش أم نعيش لنأكل) يحتمل الجوابين ، وهما : أن فريقا يأكل ليعيش ، وفريقا يعيش ليأكل ، وما كان أجمل وأعظم أن تكون الإجابة فى جواب واحد ، هو (أننا جميعا نأكل لنعيش) .

العقل الإنسانى ،إلى أين ؟

*****

لماذا لم يتوقف الإنسان عند مراحله البدائية الأولى ، مكتفيا بتلك الحياة البسيطة الساذجة ؟

لماذا لم يكتف بالنار التى يستخرجها من قدح الأحجار ؟ وبالملبس الذى يتخذه من جلود الحيوانات ، أو من ورق الشجر ؟

ولماذا لم يقنع بالمسكن الذى اتخذه من كهوف الجبال ؟

ولو أنه أراد هذا ، أكان من الممكن أن تظل البشرية كلها على هذه الحال منذ آدم حتى اليوم ؟

والجواب : أن ذلك كله لم يكن المنهج الذى يستطيع الإنسان أن يبقى عليه .

ولم يكن بالمنهج الذى تظل البشرية كلها قائمة عليه فى كل الأزمان وكل الأماكن .

لماذا لم يكن ذلك ممكنا ؟ ولماذا تطورت حياة الإنسان من البداوة إلى التحضر المستمر ؟

ذلك ، لأن الله تعالى قد خلق الإنسان وزوده بعقل متأمل مفكر ، تثيره الحياة من حوله بشمسها وقمرها ونجومها ، وأمطارها وزروعها وجبالها . فكلها مثيرات أيقظت العقل الإنسانى ودعته إلى التأمل فيها ، فعرف منها الكثير ، وعرف عنها الكثير .

كذلك كانت الاحتياجات المتعددة سببا فى البحث عن وسائل الحياة التى تمكنه من قضاء لوازمه من طعام وشراب ومسكن وملبس ، والتى تمكنه من الانتقال إلى ما يريد .

كل هذا وغيره دفع العقل الإنسانى إلى التأمل ، والبحث ، والتنقيب ، فهو بطبيعته التى خلقه الله لا يهدأ ، ولا يتوقف ، ولا يستطيع أن يغفل عما يحيط به من ظواهر الكون ، فهى تثيره ، وتغريه أن يتتبع أحوالها ، وأن يجرى وراء أسرارها وهو عند اكتشافه لشئ فإنه لا يكتفى بما كشفه ، ولا يرضى بما وصل إليه ، بل يغرية الكشف بالاستزادة من الكشوف ، وما يصل إليه من نتائج يدفعه إلى معرفة المزيد من النتائج .

فالعقل أمام الاحتياجات اللازمة للجسد ، تناول كل الأسباب التى تمكنه من الحصول على طعام أفضل ، وملبس أفضل ، ومسكن أفضل .

وهو أمام ظواهر الكون ، لم يقنع من الشمس بدفئها ، ولم يغفل عن علاقة الشمس بإنبات الزرع ، ولم يغفل عن طاقتها ، ففكر فى استغلالها الاستغلال المفيد، وكذلك لم يقنع من البحار والأنهار بما تمده منها من مياه للشرب أو سقى الزرع ، بل غاص فيها ، ليعرف أسرارها ، وكنوزها ، وطور استغلاله لها ، فى الانتقال فوق

صفحاتها ، وطوّر وسائل هذا الانتقال فعرف صناعة المراكب البسيطة ، ثم صناعة السفن الكبرى ، حتى عرف صنّاعة الغواصات الحربية .

ومثل هذا كان موقف العقل الإنسانى أمام الأرض ، حيث نقب فيها ، واستخرج كنوزها من المعادن ، والبترول ، وأمعن النظر فى تربتها ، فعرف أنواعها وأحوالها فأفاد من هذا فى الزراعة ، والبناء .

وحين احتاج إلى التنقل من مكان إلى آخر بعيد ، تدبر كيف يبتكر من الوسائل ما يعينه على اختصار الوقت ، والوصول إلى غايته المكانية على نحو مريح وسريع ، ففكر فى صناعة السيارة ، والقطار . وعند احتياجه إلى أسفار بعيدة لا تقوى عليها السيارة أو القطار ، عرف كيف يصنع الطائرة .

وهكذا فى كل جوانب الحياة الإنسانية المتعددة ، والتى لا يحصيها عَدٌّ ، وقف العقل : ليبتكر ، وينشئ ، ثم يفكر مرة أخرى ليطور مبتكراته ، وكل مرحلة تدفعه إلى أخرى أفضل منها ، حتى بلغ ما بلغ فى عصرنا هذا - عصر القرن العشرين - الفضاء البعيد حيث القمر ، والمريخ ، كمابلغ ما بلغ من وسائل الاتصال بكل فنونه وأنواعه ، ما لم يكن يقوى على تخيله من سبقونا فى العصور البعيدة أو القريبة ، وكما بلغ ما بلغ من الصناعات العلمية الدقيقة المعقدة ، فى مجال السلم والحرب .

وكل هذا وغيره مما لا نقوى على حصره فى صفحات أو كتب - هو من معطيات العقل الإنسانى الذى لا يقنع بشئ فى مجال البحث ، والجنوح الشديد إلى الكشف، والتطلع الدائم إلى مزيد من معرفة أسرار الكون بكل ما فى الكون من الأشياء المادية بمثل ما سبق من السطور . ومن الأشياء المعنوية التى شغلته ، ودعته إلى التفكر فيها ، كالخير والشر ومعنى الحياة والموت ، وما وراء الموت ، وكذلك شغلته عواطف الإنسان من حب وكره ورضا وبغض وغيرها ، فقد انشغل العقل الإنسانى بالتفكر فى هذه الأمور المعنوية ودروبها وأنواعها وأحوالها .

ومع كل هذا وذاك ، ومع ما بلغه فى جميع وجهات الحياة بمادتها ومعناها - فإنه لم يتوقف ، بل هو المستزيد الذى لا يقنع ، وهو الباحث الذى لا يرهقه البحث ، ولا يعيبه التفكير فى كل ما حوله .

وتلك هى الحكمة الإلهية التى قضت للعقل بهذه القدرة ، ففى تأمل العقل وتدبره معرفة لعظمة الخالق جل وعلا ، وإدراك لكونه إلها واحدا لا شريك له ، وأنه صاحب الدين الحق ، وأنه وحده مدبر هذا الكون ، فلا شئ يوجد من عدم ، وما كان لهذا الكون أن ينتظم هذا الانتظام الدقيق الدائم الثابت إلا بيد الله الواحد الذى لا شريك له . غير أن العقل الإنسانى وإن كان على هذه القدرة الفكرية الرفيعة ، فإن هناك من المجالات ما لا يقوى على اختراقها ، إذ لم يهيئه الله بالكيفية التى يستطيع بها أن يدرك ما وراء الغيب ، كذات الله سبحانه وتعالى ، أو ما قدره الله لمسيرة الحياة الدنيا، أو طبيعة الآخرة إلا ما أذن الله به للعقل من معارف محدودة فى هذا الإطار، بالقدر الذى يناسب الحياة الإنسانية .

وسبحان الله الخالق العظيم .

دخول العرب دنيا العلم [1]

*****

يَجْدُر بنا أن نتذكر دائما موقف الإسلام من مختلف شؤون الحياة ، فقد كان موقفه صريحا جدًا فى دعوة الناس إلى النظرة العقلية فى أمور الحياة وفى حضهم على البحث عن حقائق الأشياء ، والتزود من المعرفة والعلم بأحسن نصيب .

ولقد بشر الإسلام منذ أول عهده بالعلم ، وظل هذا الاتجاه دائما هو الاتجاه السائد فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة .

قال تعالى : ـ﴿ يرفع اللهُ الَّذين آمنُوا منكُمْ والَّذين أُوتُوا الْعلْم درجات ﴾[2]

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتوِي الَّذين يعْلمُونَ والَّذين لا يعْلمُون ﴾[3]

﴿ إنَّني أنَا اللَّهُ لا إلَهَ إلاَّ أنَا فَاعْبُدْني وأَقِمِ الصَّلاةَ لذكْرِي (١٤) ﴾[4]

ولقد حرص النبى منذ البداية على تعليم أولاد المسلمين ، فنراه قد أمر فى أعقاب غزوة بدر الكبرى ، الأسرى الذين يعرفون القراءة والكتابة أن يُعلمَ كلٌّ واحد منهم عشرة من أولاد المسلمين ، نظير فدائه ، ثم تتابعت الأحاديث التى تحض على العلم ومنها : «**من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع**[5]» (وغير هذا الحديث كثير) .

وفضلا عن هذا ، فإن روح الإسلام تفصح أيما إفصاح[6] عن أن الإسلام قد ترك الناس أحراراً فى شئون دنياهم التى لا تعارض بينها وبين نصوص الدين ، وهنا يُجْمع الباحثون جميعا من أهل الشرق والغرب على أنه لم يردْ فى القرآن الكريم نص واحد يكبح[7] المسلمين عن العلوم الدينية ، أو يُفْهم منه عداء للعلم .

ومما لا شك فيه أن تعاليم الدين الإسلامى التى حثت المسلمين على التعلم ، كانت الدافع الأول للمسلمين العرب ، وللمسلمين الذين اعتنقوا الإسلام من الشعوب الأخرى ، إلى تعلم اللغة العربية للتمكن من الاطلاع على القرآن الكريم والحديث ،

---

(١) جلال مظهر (حضارة الإسلام وأثرها فى الترقّى العالمى) (بتصرف) ص ٢٣٧ وما بعدها .
(٢) المجادلة آية ١١ . (٣) الزمر آية ٩ . (٤) طه آية ١٤ .
(٥) أورده المتقى الهندى فى كنز العمال وعزاه للترمذى والضياء عن أنس .
(٦) أى تفصح إفصاحا عظيما . (٧) يكبح : يمنع .

ثم إنه كان ضروريا وطبيعيا أن تنشأ المدارس اللازمة لتعليم الناس القراءة والكتابة ، وقد قامت الجوامع بهذه المهمة بادئ الأمر خير قيام .

وكان كل خليفة يوصى ولاته على الأقطار الجديدة أن يعلموا المسلمين القرآن والسنة ، وأن يحكموا بالعدل بحسب ما جاء فى القرآن وسنة النبى .

من هنا .. نرى أن حركة التعليم قد استهدفت إطّلاعَ الناس على القرآن والحديث، ثم إن قاعدة المتعلمين اتسعت ، وأصبح لازما أن يضع العلماء عدة علوم جديدة ، فظهرت علوم اللغة والتفسير والحديث . فلما اتسعت دائرة العلوم وظهر الجديد منها ، اتسع مجال التدريس ليشمل هذا الجديد أيضا ، ثم ازداد اتساع دائرة التعليم شيئا بعد شئ حتى شملت - إلى جانب علوم الدين واللغة - مُخْتَلَفَ فروع العلوم الأخرى التى وقع عليها العرب (من الدول التى فتحوها ، أو اتصلوا بها) .

وقد ظهرت بواكير[1] هذه النهضة الشاملة فى العصر الأموى ، وصارت البصرة عاصمة الثقافة الجديدة ومنبع إشعاعها . على أن هذه الثقافة قد اقتصرت على تنظيم وتبويب الآداب العربية والأحكام الدينية التى خرج بها المسلمون الأوائل من الجزيرة العربية .

وفى العصر الأموى ظهر (خالد بن يزيد بن معاوية[2]) الذى اشتغل (بالكيمياء)، وكان له كتب فى الطب والنجوم إلى جانب الكمياء . كما اهتم أيضا بالجغرافيا ، وهو أول عربى مسلم اتجه ذهنه إلى العلوم القديمة ودراستها والتأليف فيها ، ولقد وصلت بعض كتابات خالد بن يزيد الكيميائية إلى أوربا بعد زمن خالد بحوالى ستمائة سنة ، وكانت تدرس فى أوربا فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى .

ولما جاء أبو جعفر المنصور - الخليفة العباسى ، ثانى خلفاء بنى العباس - اهتم بالحركة العلمية ، ثم جاء من بعده عدد من الخلفاء العباسيين فدعموها بكل أسباب النجاح وهيأوا لها البيئة الصالحة للتقدم والترقى ، بدرجة لم يعرف تاريخ الحضارة لها مثيلا من قبل . فقد ازداد الاهتمام بالعلم ، واتسعت دائرة الترجمة ، وازدهر الإقبال على الدرس والتحصيل والنقل ، وانفق الخلفاء والأمراء وكبار رجالات الدولة - فى هذا السبيل - كثيرا من الأموال ، ونال المترجمون والعلماء حُظوة فى بلاط

(١) بواكير : بدايات .
(٢) توفي سنة ٧٠٤ م

الخلفاء وقصور الأمراء والأعيان ، حتى شاع بين الناس المثل القائل : « الكتابة أشرف المراتب بعد الخلافة » .

وها هو (هارون الرشيد)[1] الذى كان شديد الشغف بالعلم والأدب ، فأعاد عصر جده المنصور ، ولكن بصورة أكبر وأسخَى ، فأغدق الأموال على العلماء والأدباء والفنانين والمترجمين ، وأسس بيت الحكمة فى بغداد ، وجمع فيه الكتب المؤلفة والمترجمة ، وجعل له مديرا يشرف على شؤونه ، وسُمِّى (بصاحب بيت الحكمة) ونشطت حركة الترجمة فى عصر الرشيد نشاطا كبيرا فترجم فى عصره عدد من الكتب اليونانية والهندية التى كان لها أثر كبير فى مستقبل الحضارة الإسلامية .

وكذلك كان عصر المأمون (ابن هارون) عصرا للعلم والأدب والفلسفة ، وما ذلك إلا أن المأمون كان على حب عارم للعلم ، فأقام دعائم ملكه على العلم والحق والعدل، وجمع من حوله العلماء والأدباء ، وزوّد (بيت الحكمة) بعدد من أعيان المترجمين والعلماء . وكان لاهتمامه بالعلم أن تحقق فى هذا العصر كثير من الانتصارات العلمية ، افتتح بها العلماء عصرا جديدا فى الحضارة الإسلامية فقد انتقلوا من مرحلة الترجمة إلى التجديد والابتكار والإبداع . إلى درجة دفعت أحد الباحثين الغربيين إلى قوله : إن فترة نشوء الحضارة العربية قد تميزت بالأصالة العميقة ... إذ كانت طريقة اكتسابهم للعلوم واستيعابهم لها مثلا فريدا فى التاريخ ».

---

(١) تولى الخلافة سنة٧٨٦م وهو حفيد أبي جعفر المنصور من ولده المهدي .

التمييز بين العلم الصحيح والعلم الزائف (١)

*****

إن مخّ الإنسان وحواسه معدة إعدادا جيدا لتفادى الأخطار ، كرؤية حيوان مفترس مهاجم ، أو رائحة لحم عفن ، أو سخونة شيء ملتهب . أو طعم حمضى لمادة سامة . وقد كفل هذا العقل وهذه الحواس فى الماضى حماية كافية للجنس البشرى للتمكن من معيشة معقولة .

غير أن هذا العقل ، وهذه الحواس لم تعد تفى بوظيفتها ، فمن الممكن أن نتعاطى مئات السموم التى تنتج فى المجتمع الصناعى الحديث دون أن نشعر بها ، ومن الممكن أن نتعرض للعديد من الإشعاعات الضارة دون أن نهرب منها ، ومن الممكن أن تتسمم أجسادنا كما يحدث الآن - بكميات قاتلة من المعادن الثقيلة ومبيدات الحشرات دون أن ننتبه إلى ذلك . وهناك من الظواهر ما يسمى (ظاهرة الضفدعة) ، فإنك إذا وضعت ضفدعة فجأة فى ماء ساخن ، فإنها تقفز هاربة ، ولكن إذا وضعتها فى ماء بارد ورفعت درجة الحرارة تدريجيا فإنها تبقى فى مكانها حتى تموت ، ولعل أقرب مثل لهذه الظاهرة هوالتسمم بأول أكسيد الكربون ، إن الإنسان المعرض له لا يشم له رائحة ، ولا يشعر بأى ألم وإنما يستسلم للنوم فالإغماء فالوفاة دون رد فعل .

إنه عالم جديد يحتاج فيه الإنسان إلى عقل جديد وتفهم جديد لهذه الأخطار ، وفى نفس الوقت فإن هذا العالم يمنح البشرية فرصة لمعيشة كريمة وسعيدة لو تمكن الإنسان من تسخير وسائل العلم لمصلحته .

وكما يتفق أغلب المفكرين فإن الطريق الأساسى لمواجهة هذه الأخطار يمر بالعلم، العلم بمعناه الحديث الذى يستعمله سكان العالم المتحضر ، وليس العلم الذى يُستعمل أحيانا فى الحديث عن ممارسة التنجيم ، وممارسة الرقص فى الأفراح والموالد .

---

(١) بقلم أ . د سمير حنا صادق - عضو المجلس الأعلى للثقافة (ملحق أهرام الجمعة ١٩٩٨/٣/١٣ - بتصرف) .

والعلم الحقيقى يُواجَهُ فى جميع أنحاء العالم بما يُطلق عليه اسم (العلم الزائف) ، إذ يواجَهُ علم الفلك بالتنجيم ، ويواجه علم الچيولوچيا بالحديث عن القارات المفقودة، وتُواجَه علوم الفضاء بالحديث عن الزوار من الفضاء الخارجى ويواجه علم البيولوچيا بالحديث عن وحوش البحيرات ورجل الثلوج ، ويواجه علم الأدوية بالعلاج بالتمائم .

ويدفعنا هذا إلى التساؤل : كيف نميز بين العلم الحقيقى والعلم الزائف ؟

العلم الحقيقى هو ما يجتاز التكذيب ... وليس هناك من يدعى أن العلم هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة ، وليس هناك من ينكر دور الإيمان فى المعرفة ، والعلم يطالب بالنقد والحوار ، فالعلم لا يعزل نفسه عن النقد ، ولا يدّعى الانفراد بالحقيقة ، وهو يحتوى على وسائل تصحيح نفسه فى داخله ، وتكفى زيارة لحضور مناقشة رسالة دكتوراة أو ماچستير حيث يقف الباحث موقف الدفاع أمام المهاجمين لشرح أفكاره - تكفى هذه الزيارة لمعرفة مدى قابلية العلم للنقد والتعليل .

هذا هوالعلم ، وهذا هو العلم الزائف .

الإيمان والعلم

للدكتورة : بنت الشاطئ(*)

التاريخ العام يعترف للدين الإسلامى بأنه حسم الخصومة بين الدين والعلم حسما باتاً، بعد أن كبّدت هذه الخصومة الإنسانية فادح الخسائر والضحايا .

ولكن هذه الشهادة - من واقع التاريخ - قد تغيب عن أبناء هذا الزمان في دوامة الشواغل ، وشغب المذهبيات ...

وعامة المسلمين لا يحتاجون إلى من يذكّرهم بأن الوحى بدأ بكلمة « اقرأ » وأن آيات الوحى الأولى هى آيات القراءة والقلم والعلم ، وكلها من خصائص الإنسان لا يُشركه فيها أحد غيره ، وفيها اقترن الإيمان بالخالق جل جلاله ﴿ خلق الإنسان من علقٍ ﴾ [العلق :٢] كما اقترن بتكريم الإنسان بالعلم الكسبى(١) ﴿ علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق :٥] .

ولا تخلو دار إسلام من قراء يتلون آيات القرآن فى تكريم آدم واستخلافه فى الأرض مزودا .

والعلم فى الإسلام عبادة وجهاد يأخذ موضعه فيه على أصول ومبادئ وأحكام مبينة فى القرآن الكريم ، مفصلة فى الحديث الشريف ، حيث (كتاب العلم) مع كتب (الإيمان والعبادات والمعاملات والجهاد) فى كتاب الموطأ(٢) والصحيحين(٣) وسائر كتب السنن .

(وكتاب العلم) فى صحيح البخارى يأتى مباشرة بعد كتاب الإيمان ، فى أربعة وخمسين بابا ، والتفت الشُّرَّاح إلى أن الإمام البخارى فى صحيحه بدأ (كتاب العلم) بباب (فضل العلم ، ولم يبدأ بتعريف العلم ؛ وذلك لاعتقاد البخارى أن العلم فى غاية الوضوح فلا يحتاج إلى تعريف وهو أبْين من أن يُبَيَّن .

وقوله تعالى ﴿ وقل ربِّ زدني علماً ﴾ [طه :١١٤] واضح الدلالة فى فضل العلم ،لأن الله تعالى لم يأمر - فى القرآن - نبيه عليه السلام بطلب الازدياد إلا من العلم.

(*) بتصرف .

(١) العلم الكسبى : هو ما يبلغه الإنسان بكسبه العقلى من بحث وتأمل .

(٢) وضعه الإمام مالك فى الأحاديث النبوية الشريفة .

(٣) الصحيحين : صحيح البخارى ومسلم .

وفى قوله تعالى ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ [محمد: ١٩] قد بدأ بالعلم قبل القول والفعل ، والخطاب فى الآية وإن كان للنبى صلى الله عليه وسلم ، فهو يتناول أمته .

كذلك قول الرسول « **العلماء ورثة الأنبياء** » (رواه أبو داود والترمذى) ، فلهذا الحديث شاهد من قوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ [فاطر: ٣٢] .

وقد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض عين[١] على كل مكلف[٢] وهو ما لا يسع المسلم جهله . أما سائر[٣] العلم ، وطلبه ، والتفقه فيه ، وتعليم الناس إياه، وفتواهم به فى مصالح دينهم ، ودنياهم ، فهو فرض كفاية : إذا قام به من يكفى الحاجة سقط فرضه الباقين ، ولا خلاف بين العلماء فى ذلك ، وحجتهم قول الله عز وجل ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا ﴾ [التوبة: ١٢٢]

فقد ألزم النفير[٤] البعض دون الكل ، ثم ينصرفون فيعلمون غيرهم .

وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله عليه وسلم يقول: «**لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد** » (رواه الترمذى وابن ماجة) وهو حديث ندرك منه فضل العلم على العبادة .

---

(١) (فرض عين) أى العلم المفروض على كل مؤمن ، لا يتخلف عنه أحد ، وهو العلم اللازم لحياة الإنسان ، كالعلم بما يجب لأداء أركان الدين ، والعلم المتعلق بأسباب الرزق .

(٢) المكلف : هو العاقل البالغ الذى يلزمه التكليف بأمور الدين والدنيا .

(٣) سائر : بقية . (٤) النفير : الخروج للحرب .

معنى (التَّلَوُّث) فى اللغة

تجرى كلمة (التلوث) على الألسنة كثيرا ، ونقرؤها كثيرا ، ونسمعها كثيرا ، وقد اقترنت فى أذهاننا جميعا بالأذى والضرر ، حتى صارت لدينا من الكلمات المخيفة ، فإذا ربطناه بشىء مما حولنا كان هذا الشئ مستوجبًا للحذر والتوقّى .

ومن الأوفق فى التعبير أن نستعمل اللفظ ونحن على بينة من المعنى الذى يدور حوله ، حتى يسهل علينا أن ندرك القصد منه إن كتبنا عنه أو قرأنا .

فماذا تعنى كلمة (التلوث) ؟

(التلوُّث) مصدر ، فعله (تَلوَّثَ) ، وهو فعل لازم (أى لايحتاج إلى مفعول به) نقول: (تلوَّث الشىء) أى : صار ملوثا .

ومثله (التلويث) وهو مصدر ، فعله (لوَّث) وهو فعل متعد (أى يحتاج إلى مفعول به) . نقول : (لوّث الجوُّ الطعام) .

والجذر اللغوى هو (لَوث) وحول هذا الجذر نجد كثيرا من الكلمات مثل : (أَلاَثَ ، وأَلْوَثَ ، ولوَّث ، وتلوَّث ، والتـــاث ، واللَّواث ، واللَّواثة واللوْث ، واللوَّثة ، واللَّوثة ، واللويثة) وفى المعاجم[1] متسع لمعرفة ما يدل عليه كل لفظ من هذه الألفاظ ، وإن كانت معظم المعانى لهذه الألفاظ تلتقى عند مفهوم الضرر ، أو الخطأ .

ويعنينا هنا ما يدل عليه لفظ (التَّلَوُّث) و (التَّلويث) .

نقول : (تلوث الثوب بالطين) أى : تلطخ به .

و(تلوث الهواء أو الماء) أى : خالطته مواد غريبة ضارة .

وتقول : (لوّثتُ الشىء بالشىء) أى : خلطته به .

(ولوثت الشىء) أى : دَلَكْتُه حتى انحلت أجزاؤه .

وهذه المعانى إنما تحمل معنى الأذى والضرر ، فإذا قلنا : (تلوثت البيئة) كان المعنى أن البيئة قد خالطها شىء أفسدها فجعلها غير صالحة للحياة ، و هو المعنى المقصود حين نقول (تلوث الطعام) أو (تلوث الهواء) أو (تلوث الماء) أو (تلوث الجرح) أو (تلوث الدواء) أو غير هذا من كل الأشياء التى نستعملها فى حياتنا ويؤدى بها التلوث إلى عدم صلاحيتها للاستعمال .

(١) انظر المعجم الوسيط الجزء الثانى .

وما نقوله هنا عن تلوث الأشياء المادية المحسوسة ، نقوله أيضا عن الأشياء المعنوية التى لاتدرك بالحواس ، وإنما تدرك بالذهن ، وذلك كقولنا .

(تلوث رأى فلان) أو (تلوث فكر فلان) أو (تلوثت عقيدة فلان) أو (تلوث العمل الفنى) .

بمعنى أن (الرأى) قد أصابه ما أفسده ، وأن الفكر قد اختلط به ما أخرجه عن الصحة والسلامة ، والعقيدة ، والفن كذلك .

فالتلوث أمر يشمل الجانب الحسّى أو المادّى ، ويشمل كذلك الجانب المعنوى كالعقل ، والعمل ، والعقيدة ، والأفكار ، والضمير ،والنفس ، وغير هذا من الأشياء التي لاتدرك إلا بالذهن .

وكلا هذين النوعين من التلوث (المادّى والمعنوى) يقع تحت ما نسميه : (التلوث البيئى) والبيئة - فى معناها - كل ما يحيط بالإنسان فى مكانه الذى يحيا فيه ، من بشر ، وزروع وحيوان ، وهواء ، وماء ، وأرض ، وأيضا كل ما تشمله الحياة الإنسانية من آراء وأفكار واتجاهات وأعمال ، وفنون ، وتعليم .

فالبيئة كلمة جامعة لكل مقومات الحياة .

وعلى هذا يكون معنى (التلوث البيئى) هو : اختلاط شىء من أشياء البيئة بما يفسده ، ويخرجه عن صلاحيته وسلامته .

التلوث الفكرى

*****

كل إنسان على هذه الأرض ، إنما يمارس حياته من خلال أفكاره ، ورؤيته للحياة، فأفكاره هى التى تدله على اختيار العمل ، واختيار المكان الذى يقيم فيه ، واختيار العلم الذى يريده ، واختيار الزوجة والصديق . وهى التى تدفعه إلى ممارسة الأنشطة التى يحبها وهى التى تدفعه إلى كل جوانب حياته .

والإنسان لايستطيع وحده أن يُنْبِتَ الأفكار التى يستدل بها ويسترشد بها فى معيشته دون أن تكون للحياة من حوله نصيب كبير فى تحديد نوع هذه الأفكار ، ودون الاستعانة فى تجسيد أفكاره بآراء غيره ، بل إن الاستعانة بفكر آخر هو من لوازم الحياة ، وقد نبهنا القرآن الكريم إلى هذا بقوله تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (٧) ﴾(١) .

والناس جميعا يتأثر فكر بعضهم بفكر بعض آخر ، وهما تأثر وتأثير متبادلان ؛ لأنه لاصواب لفكر واحد ، وإلا ماكنا فى حاجة إلى الشورى وتبادل الآراء .

وفى حياتنا من الأفكار ما يسمى «بالعدوى الفكرية» وهي سريان فكرة من الأفكار بين الناس بفعل انتشارها وشيوعها بأى وسيلة من وسائل الشيوع و الانتشار.

فإذا ما شاعت فكرة ، سرعان مايتأثر بها كثيرون ، وسرعان ما يعتنقها مزيد من الناس لا لأنها فكرة خيرة أو ناضجة ، بل هو الاعتناق المبنى على تأثر يستحوذ على الناس ويسيطر عليهم سواء أكانت فكرة حسنة أم سيئة .

أمام هذا التأثر الجمعى الذى يمكن أن يضم إليه غالب الجماعة ، أو يضم إليه الناس جميعا فى مكان واحد ، أو فى مختلف الأماكن - أمام هذا يمكن أن يتخذ التلوث الفكرى سبله إلى عقول الناس فتفسد به حياتهم وهم لايشعرون ، وكذلك يمكن أن يتخذ النضج الفكرى سبيله إلى عقول الناس فتصلح به حياتهم فى جو من الاستنارة والوضوح والوعى التام ، ومن مفهوم التلوث - وهو خلط النافع بشىء يفسده - يمكن أن ندرك المقصود بالتلوث الفكرى ، وهو أن يعتنق واحد من الناس فكرة يسعى بها إلى فساد فى الأرض ، ثم يستقطب حولها بعضا من الناس ، يزين لهم ما يرى ، ويحبب إليهم ثمرة فكرته ، ويرغبهم فيها بما يناسب طبيعتها ، فإذا ما

(١) سورة الأنبياء آية : ٧ .

آمنوا بها ، ونشطوا بدورهم إلى إقناع غيرهم بها، وهكذا تستشرى الفكرة ، وتنتشر ، وتشيع ، وبهذا الشيوع يتحقق التلوث الفكرى فى البيئة .

وكلمة (التلوث) إذا ألحقنا بها شيئا ، فقد أشرنا إلى فساد هذا الشىء ؛ لأن التلوث لايحمل فى مضمونه إلا الفساد والهلاك .

فالتلوث الفكرى - إذن - هو الفساد الفكرى ، أو الهلاك الفكرى ، الذى يأخذ الناس إلى مهاوى التخبط فى تدبير حياتهم بكل أنواعها ، بعيدا عن المفاهيم الصحيحة التى يقرها العلماء والمفكرون وأهل الرأى .

فالفكر الصحيح هو ما كان معترفا به من جانب هؤلاء ، ومن جانب العقل الذى يتأمل ، ويتدبر ، ويناقش ، ويحلل ، وهو - أيضا - ماكان قائما فى ظل التمييز بين الخبيث والطيب ، أو بين الردىء والجيد ، وكل هذا الاعتراف ، والتأمل والتدبير، والتحليل والتمييز ، فى إطار من العقيدة الصحيحة التى جاء بها الدين ، ووضح معالمها ، وبين سبلها ، وأزاح بها ما علق بالعقول من خرافة ، وما نبت بها من أوهام .

إذا ما كان فكر الإنسان على هذا النحو ، فهو الفكر الصحيح النقى ، وإن لم يكن هكذا فهو الفكر الملوث .

وبيئة الإنسان بكل ما حملت البيئة ، إنما هى من معطيات الفكر ، وكل ما يحيا به الإنسان هو من معطيات الفكر ، بل إن حياتنا الآخرة قائمة على ما اقترفت أفكارنا ، أو ما برئت به أفكارنا فى الحياة الدنيا .

وحين يتأمل كل منا حياته فى مستوياتها المتعددة والمختلفة ، سوف يجد أن الفكر أمر قائم وكامن وراء كل ما يمارس من أفعال .

من هنا كان التلوث الفكرى هوالتلوث المؤثر فى شؤون حياتنا المادية والمعنوية ؛ لأنه ينتهى بنا إلى فساد المادة والمعنى ، فهو مفسدة للتعليم والتعلم ، ومفسدة لأحوال البيئة فى صناعتها ، وزراعتها ، وتجارتها ، وفوق هذا وذاك فهو مفسدة للعقائد الدينية ، وإن فسدت العقيدة كان فيها هلاك الدنيا والآخرة .

ولو أن فساد الفكر كان مقصورا على شخص واحد لايتعداه إلى غيره ، ولم يؤثر به فى غيره ، لكان الفساد هنا فساداً خاصا بصاحبه ، وما عنانا أمره إلا بقدر ما

ننصحه به ، فإن استجاب كان ذلك خيرا له . وإن لم يستجب فلا خير على مَنْ حوله ، لأنه الفساد الذى ينمحى ويزول بزوال صاحبه ، ولا نسمى هذا الفساد الفكرى الفردى تلوثا بيئيا إلا إن تعدى صاحبه إلى غيره من أبناء المجتمع وأخذ فى الانتشار ، فإن كان كذلك فهو التلوث البيئى بمعناه الواسع !

وما واجهت المجتمعات من أمور الإفساد ، قدر ما تواجه من تلوث الفكر وفساده حين ينحو إلى استقطاب الناس ودعوتهم إليه .

ومرد الفساد الفكرى لدى صاحبه ، هو الضعف العقلى ، وضحالة المعرفة ، وسوء النشأة التربوية ، ومن تلوث فكره بعدوى هذا الفساد ، فهو من ذوى الضعف والضحالة والسوء . ولا يتحقق العلاج على مستوى الفرد إلا بصحوة عقلية ، يحاول بها التأمل والتمييز بين الصحيح والفاسد من الأفكار مستمينا بما بينته حدود العقيدة فى شؤون الإيمان ، وما وضحه الشرع فى شؤون الحياة ، وسوف يجد من الدين نبراسا يكشف به كل ما يرغب العقل فى معرفته ، وكل ما يحتاج إليه من إجابات ، وكل ما يستعين به على فهم عموم الحياة وخصوصها ، وفى القرآن الكريم ما نطمئن به إلى هذا ، حيث يقول تعالى فى القرآن الكريم :﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (١) .

أما العلاج على مستوى الجميع - إن عم التلوث بعض أفراد المجتمع - فقد كفلت الشريعة وسائل العلاج الموزع بين الترغيب والترهيب والتعزير(٢) وإقامة الحدود ، ولولى الأمر أن يرى ما قننته الشريعة فى توافق بين الجرم وعقابه .

هذا إلى جانب ما يجب من التوعية الفكرية التى تناط بأجهزة الإعلام وصحفها، وتناط برجال العلم ، وأهل الوعظ المستنيرين ، والتى تناط - أيضا - بمناهج التربية والتعليم فى جميع المؤسسات العلمية .

فإن تحقق هذا كله ، كان من المأمول أن نقضى على ذلك التلوث الفكرى ، ويسترد المجتمع عقول أبنائه التى غابت تحت وطأة هذا التلوث .

---

(١) سورة الأنعام آية : ٣٨ . (٢) التعزير : التأديب .

سيىء العادات
عند الصغار

يقولون : «من شب على شىء شاب عليه» ونشأة المرء شبيهه بنشأة الشجرة ، فإن اعتدلت الشجرة فى غرسها ، كبرت على اعتدالها ، وإن مالت عند الغرس نمت وهى فى ميلها ، وحينئذ لاتفلح المحاولات لاستقامتها .

كذلك الإنسان يشب فى كبره على ما اعتاده فى صغره من خير أو شر ، وخير الصغير أو شره هو نتيجة من نتائج التربية الأسرية ، والتربية المدرسية ، فكم من أسر دفعت بأبنائها إلى سوء السلوك . وكم من تلاميذ المدرسة لم تفلح المدرسة فى تطويعهم للسلوك الصحيح .

وحال المرء فى صغره يكشف عن حاله فى كبره ، وذلك أمر يستوجب العناية بتنشئة الصغار .

على أن الأسرة فى مبتدأ النشأة هى المسئول الأول عما يصيب الصغير من سوء السلوك ، وهى المسئول الأول عن عجز المدرسة عن تطويعه لحسن السلوك ، وذلك بما تنبهه إليه ، وتأخذه به فى طعامه ، وملبسه ، ولغته ، وعلاقته بأفراد الأسرة ، وعلاقته بغير أفراد الأسرة، وبإكسابه صفات الخير وعادات الحرص على سلامة الأشياء داخل المنزل وخارجه ، وذلك هو الغرس الطيب الذى تستقيم به نفسه ، وغير هذا فهو من الغرس السيىء الذى يخرج للحياة أفراداً شاهت نفوسهم ، وشاه سلوكهم ، وكانوا وبالا على أنفسهم وعلى غيرهم .

وفى حياتنا اليومية نرى من حولنا مالا تستريح إليه النفس مما يسلكه الصغار ، وإذا كانت الأسرة قادرة على احتمال ما يفعله أبناؤها ، وتتغافل عن سوء ما يفعلون وإن كبر ، فمن غير المعقول أن ندعو الناس إلى التغاضى عما يؤذيهم من صغار الأطفال وكبارهم .

وإذا كانت الأسر - الجاهلة - لايعنيها من أمر أبنائها شىء ، فإن هؤلاء الأبناء هم ضحايا هذا الجهل ، وضحايا عدم العناية بهم .

من أجل هذا كانت ضرورة الدعوة إلى تنشئة الصغار على حسن العادات مع أنفسهم ، وحسن العادات مع غيرهم ، بدلا من تلك الظواهر السيئة التى نشهدها فى سلوكه ، بمثل ما نرى فى بعض الأسر ، إذ ينشأ الطفل على لغة مفعمة بالألفاظ التى لا أثر فيها لتوقير الكبير ، ولا أثر فيها للحياء الواجب ، ومن العجيب أن يجد الطفل من أمه وأبيه ما يقوّى لديه حب استعمال هذه الألفاظ ، ويغريه بتكرارها حين يجد الرضا منهما عما يقول ، ومثل هذا ما نراه من تغاضى الأسرة عما يسلكه

الطفل من عادات تنمى لديه حب الذات ، والأثرة ، وعدم الحرص على حقوق الآخرين ، حين لاتكترث الأسرة بما يصر الطفل عليه من امتلاك الأشياء ، والتمسك بها ، وحين تلبى له مطالبه ، صحت هذه المطالب أو فسدت .

ومثل هذا - أيضا - ما تقوم به الأسرة من غرس الميول العدوانية لدى الصغير ، حين تنمى بداخله روح الاعتداء على الآخرين ، وتقيم الحواجز بينه وبين تودده إلى غيره ، ولا تهيىء له جسور المحبة بينه وبين أقرانه .

ومن هذه الظواهر السيئة - أيضا - ما ينشأ عليه الطفل من الميل إلى الفوضى ، والكسل بعدم إلزامه بالنظام فى شؤونه من طعام ، وملبس ، واستذكار ومراعاة التفرقة بين ما هو مفروض عليه وماليس مفروضا . والتفرقة بين وقت العمل ، ووقت الفراغ من الأعمال اللازمة .

وكذلك يتجلى سيىء العادات فيما يفتقده كثير من الأطفال فى مجال الآداب ، كآداب الضيافة حيث يعمد الطفل الضيف إلى العبث بما فى منزل المضيف ، ومثل هذا ما يفتقدونه من آداب الطريق ، حيث يجتمع الصغار فى مباراة لكرة القدم ، دون مراعاة لمرور الناس ، ودون اكتراث لمعنى ملكية الطريق إذ هو للناس عامة ، لا يستأثر به أحد دون غيره .

ومن سوء العادات ، عبثهم بممتلكات الناس أو المرافق العامة ، أو إيذاء المارة باللفظ أو بالفعل .

كل هذا - وغيره كثير - مظاهر سلوكية ينشأ عليها كثير من صغار الأطفال وكبارهم وماهم بالملومين ، إنما اللوم على الآباء والأمهات .

وقد يسأل سائل :

وماذا عن أطفال فقدوا آباءهم وأمهاتهم بالموت ، أو بافتراق كل منهما عن الآخر ، فصاروا بلا راع ، وألقت بهم ظروف الحياة فى خضمها ، وليس لهم من مرشدٍ أو هادٍ . ؟

والجواب أن رعاية السلوك لدى الأطفال موزعة بين الأسرة ، والمدرسة والمؤسسات التى ترعى الطفولة ، وللشرطة نصيب من هذه الرعاية ، وكذلك المواطنون ، لهم حظ من هذه المسئولية . فإذا ما كان هناك منهج عام يجعل كل هذه الجهات فى موضع المسئولية عن تنشئة الطفل ، فلن نستطيع حينئذ أن نجد مبررا للسلوك السيىء لدى طفل لم تتعهده الأسرة بالتربية القويمة ، أو طفل غاب عنه والداه ، أو طفل مات عنه أبواه ؛ وذلك لأن آداب الطفولة هى فى إطار مسئولية المجتمع جميعه .

القتلة الصغار

*****

إن حوادث العنف التى تقع من الأطفال فى كل أنحاء العالم سوف تكشف أننا أمام ظاهرة عالمية جديدة ومخيفة ، فقد نقلت وكالات الأنباء أخبار مذبحة بشعة، فتح تلميذان أمريكيان مسلحان ، يتراوح عمراهما بين أحد عشر عاما ، وثلاثة عشر عاما - النيران بشكل عشوائى على عشرات من زملائهما بمدرسة إعدادية صغيرة فى ولاية أركنسو .

وقد أسفر الحادث عن مصرع أربع تلميذات ، ومعلمة ، وإصابة عشر فتيات بجراح بالغة .

وقد ألقت الشرطة القبض على الصبيين خلال محاولتهما الفرار . وقد لاحظت الشرطة أن الحادث أعد بإحكام ، فقد اختبأ الصبيان خلف الأشجار ، فى الوقت نفسه ، قام صبى ثالث بإطلاق جرس إنذار الحريق فى المدرسة .

وخرج التلاميذ بسرعة هربا من الحريق الوهمى ، ووسط الهرج والمرج الذى ساد بعد إطلاق جرس الحريق فتح الصبيان المختبئان نيران أسلحتهما على المدرسات والتلاميذ بشكل عشوائى فحصروا خمسة من القتلى وعشرة من الجرحى .

وقد تبين من التحقيق أن صديقا لأحد الطالبين القاتلين قال : إن أحدهما كان يذهب إلى المدرسة مسلحا أحيانا بالسكاكين ، وأنه كان عدوانيًا ، ويلجأ إلى العنف لأتفه الأسباب ، وأنه منذ صغره كان والده يدربه على إطلاق بنادق الرش ، وهذا ثابت فى شريط « فيديو» فالطفل يمسك ببندقية وهو يوجهها نحو «كاميرا» آلة تصوير .

ولم تعرف حتى الآن دوافع الحادث وأسبابه ، وإن أشارت الأخبار الأولى إلى تعرض التلميذين لعقاب مدرسى ، وإلى فشل أحدهما فى إقامة علاقة عاطفية مع تلميذة فى المدرسة .

وقد شهدنا فى القاهرة حادثا غريبًا ، فقد اجتمع بعض طلاب مدرسة ثانوية فى مطعم مجاور لمدرسة تجريبية مشتركة ، وأعدوا خطة للهجوم على هذه المدرسة المشتركة بقنابل «مولتوف » الحارقة ، وقد استنجدت مديرة المدرسة بالشرطة التى

حضرت وطوقت الأولاد المهاجمين ، وقبضت على عدد منهم ، وفى حوزة أحدهم زجاجة مملوءة بالبنزين .

وكان رد فعل هذا الحادث على المجتمع المصرى عنيفا ، وكتبت كثير من الصحف فى هذا الموضوع ، وأجروا التحقيقات مع رجال التربية وعلماء النفس لتفسير هذه الظاهرة ، وكذلك أدلى علماء الاجتماع بدلوهم ، والحقيقة الغائبة عن المجتمع هى الخلل الموجود فى المدارس ، وكذلك فى الأسرة ، مما يدفع بهؤلاء الطلاب إلى استعمال العنف لحل مشاكلهم .

ويقول الكاتب الكبير أحمد بهجت فى مقاله الذى ينشره تحت عنوان صندوق الدنيا : «إن أصابع الاتهام تشير إلى السينما والتليفزيون ، فالعنف الذى يدخل فى نسيج السينما الأمريكية ، والعنف الذى تنطوى عليه الرسوم المتحركة فى برامج الأطفال يوشك أن يصل إلى حد تدريس الإجرام للأطفال ، ويوشك أن يجعل من العنف ردا مقبولا ومبررا على كل تحديات الحياة ، وهذه مأساة تحتاج إلى وقفة متأنية ودراسة عميقة ».

وبجانب ما يراه هؤلاء المراهقون من مناظر عنيفة فى أشرطة الفيديو وفى التليفزيون والسينما هناك الصحافة التى تنشر أخبار العنف والبلطجة .

هذه الظاهرة تحتاج فى مواجهتها إلى تعاون وثيق بين البيت والمدرسة ومتابعة الأولاد متابعة جادة ، وأن نقوى فيهم الوازع الدينى الذى يدفعهم إلى فعل الخير بوازع نفسى إلى تجنب الشر والبعد عنه لما له من آثار تعود بالضرر على مرتكبه فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، إذا غرسنا فى الطفل حب الغير والتعاون مع زملائه ، ومعاملة الجنس الآخر باحترام وتقدير وألا نترك لغرائزنا العنان لتتطلق وتدمر كل شىء أمامها ، إذا علمنا أولادنا الحرام والحلال ، وراقبنا سلوكهم وشخصياتهم على الخير ونهيناهم عن الشر غرسنا فيهم هذه القيم لتصبح عادة من عاداتهم ومنهجاً لحياتهم.

لابد أن يكون الوالدان قدوة صالحة لأولادهما وألا يحدث شجار بينهما فى حضرة أولادهما ، وأن يوجهوا الأبناء إلى القدوة الصالحة والتى تمثلت فى رسولنا الكريم صلى الله ﷺ قال تعالى ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وقد امتدحه القرآن الكريم حين قال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [القلم : ٤]

علينا أن نوجه أبناءنا إلى قراءة سيرة السلف الصالح وكيف كانوا يتعاملون ، وكيف كانوا يألفون ، ويؤلفون وكانت المحبة تسود المجتمع . والتعاون يسهل لهم حياتهم . الجار يسأل عن جاره ، الطالب يحب زميله . إذا التقى بطالبة يحترمها ويحميها لايفكر فى الاعتداء عليها أو معاملتها بقسوة .

علينا أن نتخذ قول الرسول الكريم «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا**» . (رواه أحمد والترمذى) .

وللمدرسة دور كبير فى تهذيب التلاميذ وتأديبهم وحشد طاقاتهم عن طريق الأنشطة المختلفة لعمل نافع ومفيد ، وللأسف فقدت المدرسة هيبتها منذ أن عاملنا التلاميذ معاملة فيها تراخ وليونة ، دللناهم ، وجعلنا الأمور فى أيديهم وتصرفاتهم على معلميهم ، فكم من شكوى يقدمها التلميذ أو ولى أمره إلى المسئولين عن التعليم حتى يسارعوا إلى معاقبة المعلم وتشريده دون تحقيق أو تأكد من صحة الشكوى أو زيفها .

لقد كانت هناك درجات تعطى لسلوك التلميذ ، ولكن الوزارة ألغتها ، ثم عادت وأرادت أن تعيدها مرة أخرى ، كانت هناك أعمال سنة تشغل التلميذ طوال العام وتصرفه عن التفكير فى اللهو والعبث لكنها ألغيت دون بحث أسباب الإلغاء ، وإنما يقرر المسئول الأمر ثم ينفذ دون مناقشة ، وهذا دفع التلاميذ إلى السخرية من معلمهم وعدم احترامه ، فاهتزت صورة المعلم ، وأصبح يستدر عطف تلميذه عليه وإلا وقع فى مشاكل كثيرة . علينا أن نقف وقفة حازمة ، وقد جعل الله الثواب والعقاب ، وأن نعامل أبناءنا فى المدارس معاملة جادة حازمة ، تعودهم الطاعة واحترام معلمهم ،و تعودهم احترام الدرس واحترام الامتحان واحترام النظام ؛ لأن العلم بدون أخلاق لاقيمة له ، وقد صدق أمير الشعراء حين قال :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا .

وقول حافظ ابراهيم :

لاتحسبن العلم ينفع وحده مالم يتوج ربه بخلاق .

لماذا نحب الوطن؟

*****

من أسرار الله تعالى فى طبائع البشر ، أن زود كل إنسان على وجه الأرض بعاطفة الحب لوطنه ، أو عاطفة حب المكان الذى يعيش فيه .

ولم يكن هذا التزويد الإلهى للإنسان بهذه العاطفة ، إلا لأنها سبب عظيم من أسباب سلامة الإنسان مع نفسه ، وسلامة المجتمع فى عمومه ، فحب الإنسان لوطنه ، يعنى حبه للناس ، والمكان ، ومثل هذا الحب ، هو رابطة قوية بينه وبين غيره .

وفى ظل هذا الحب الذى يربط الناس جميعا ، يشعر الإنسان بالأمن والطمأنينة، وفى ظل هذا الحب يسعى كل فرد منهم إلى ما يحقق السعادة للجميع ، فتراهم جميعا على قلب رجل واحد ، وتراهم جميعا على عقل رجل واحد، وتراهم جميعا عند غاية واحدة ، وهدف واحد .

وفى هذه الوحدة القلبية ، والوحدة العقلية يتحقق للجميع أن يعيشوا وَفْقَ ما يرضى كل فرد منهم .

ولا تتحقق هذه الوحدة بنوعيها إلا من خلال هذا الحب الذى يملك مشاعر الإنسان نحو وطنه بأفراده وأماكنه .

إذن ، فحب الوطن ، هو الحب للحياة الآمنة ، والخلاّقة ، وهو حب للقيم الرفيعة ، التي تجعل الإنسان عضوا فى الجماعة ، يحب ما يحبون ويكره ما يكرهون ، وغايته فى الحياة جزء من غايتهم فى الحياة.

وإذا أردنا ضرب مثل لحب الوطن ، فليس لدينا مثل أكثر رفعة من موقف النبى محمد ﷺ ، حين خرج من مكة إلى المدينة مهاجرا ، حيث قال موجها خطابه ومشاعره إليها : «**والله لولا أن قومك اخرجونى منك ما خرجت**» (**رواه الترمذى وابن ماجة**) فمع أن خروجه - ﷺ - أمر يتصل بهدفه الأسمى فى الحياة ومع أن خروجه هذا لم يكن لديه أمرا اختياريا ، بل الأمر الذى وجهته إليه السماء ، فإنه لم يقوَ على إخفاء الحب لوطنه وهو يغادره ، ولم يقو على كتم مشاعره نحو وطنه .

وكذلك كان موقف السيدة عائشة - زوجة الرسول - حين قالت وهى فى المدينة بعد هجرتها إليها ، «والله إن هديل الحمام فى مكة أحب إلىّ من هديل الحمام فى المدينة ، وإن القمر فى مكة أحب إلىّ من القمر فى المدينة».

فهديل الحمام هو هو فى أى مكان ، والقمر . هو القمر فى كل أنحاء الأرض .

لكن المحب لوطنه يرى كل ما فيه ، وكأنه شئ ينفرد به وطنه ولا يتكرر وجوده فى مكان آخر ، حتى وإن كان الشىء واحدا يعيشه الناس فى كل الأوطان فى وقت واحد، ويراه الناس فى كل الأوطان فى وقت واحد .

فما بالنا إن وجدنا فردا من الناس يتربص بالعداء لوطنه ؟

وما بالنا إن رأينا من يطلق الرصاص على أبناء وطنه ؟

وما بالنا إن وجدنا من يعين العدو على وطنه ؟

من العسير ، بل من المستحيل أن نصف هذا الفرد وأمثاله بصفة المواطن ! ومن المستحيل أن نلتمس له عذرا فى كرهه لوطنه ، أو خيانته لوطنه ؛ لأنه بالكره أو الخيانة قد تجرد من كل المشاعر الإنسانية ، التى تؤهله لرضا الرب وتجعله عضوا شريفا فى الحياة .

ومن هنا كان حب الوطن ، علامة لنقاء السريرة ، وعلامة لحب الخير وعلامة لشرف الضمير ، وعلامة كبرى لإيمان الإنسان بدين الله وفىّ هذه المفاهيم جواب لمن يسأل :

"لماذا نحب الوطن"؟

ماذا نجنى من السياحة

*****

يَغْفُل كثير من الناس عن فوائد السياحة لدولة من الدول ، ويتراءى[1] لهؤلاء أنها ليست أمرا له شأنه ، فما هى إلا نزهة قوم بها بعض الناس فى مكان غير مكانهم ، أو بلدهم .

والغافلون عن أثر السياحة بكل جوانبها ، هم غافلون عن طبيعة حركة الحياة فى صورها المختلفة .

فالسائح حين يتنقل من بلده إلى بلد آخر ، إنما يفعل ما هو من لوازم الحياة للإنسان ألا وهو : التزود بالمعارف الجديدة ، واكتساب خبرات جديدة ، وتنشيط النفس والذهن .

وذلك كله هو من لوازم الحياة ، إذا أراد الإنسان أن تكون حياته متجددة ، ونشيطة وإذا أراد أن يستزيد من المعارف والمعلومات التى لاتتوافر لديه وهو فى مكانه .

فالبقاء والثبوت فى مكان واحد ، يحجب عن الإنسان كثيرا من المعارف والمعلومات التى يمكن أن يبلغها لو أنه رحل إلى أماكن أخرى ، والحياة مليئة بصنوف لاتنتهى من الحيوات البشرية ، بعاداتها وتقاليدها ، وملئية بأجناس متباينة [2] من البشر ، وفى أماكن الأرض عديد لاتنتهى من صور الطبيعة ، لبحورها ، وجبالها ، وزرعها ، فإذا ما رحل الإنسان من مكانه إلى غيره ، كان لهذه الرحلة أثرها النافع ، الذى لايمكن له أن يحققه فى مكانه الدائم الثابت ، وذلك باطلاعه على مالم يكن يرى من الناس ، ومن مشاهد الطبيعة ، وباطلاعه على مالا يجد فى الكتب أو الصحف من أمور لاتذكرها الكتب أو الصحف ، فالكتب والصحف ، وأجهزة الإعلام لاتستطيع - مهما أجهدت نفسها - أن تقدم للمشاهد أو المستمع أو القارىء كل صور الحياة على الأرض ، ولو أن الإنسان اكتفى بما يقرؤه أو يسمعه ، لفاته الكثير مما خلق الله فى مختلف بقاع الأرض .

ومن هنا تأتى السياحة لتضيف للإنسان كثيرا من المعلومات ، وكثيرا من مجالات التأمل .

---

(١) يتراءى : يبدو . (٢) متباينة : مختلفة .

وفوق هذا وذاك ، تلعب السياحة دورها فى تنشيط النفس ، وفى علاجها من السأم وعلاجها من كثير من العلل النفسية .

ومن هنا كان الانتقال من مكان إلى آخر أمرا يفرضه الأطباء النفسيون على مرضاهم حين يأمرونهم بالرحلة إلى مكان جديد ؛ لأن مشاهد المكان الجديد تشغلهم عمَّا هم فيه من كآبة ، وتلهيهم عن أحزانهم .

فالسياحة بالنسبة للفرد ، علم ، ونشاط ، وعلاج ، وحيوية متدفقة يزداد بها الإنسان قوة فى مواجهته لشؤون الحياة ومطالبها هذا عن أثرها فى حياة السائح .

أما عن أثرها فى مكان السياحة . فهى كسب - أيضا - لذوى المكان المقصود بالسياحة تتمثل وجوه هذا الكسب فيما يعود على الناس - فى مكان السياحة من إنعاش الجانب الاقتصادى ، إذا يحتاج السائح إلى مكان الإقامة ، والطعام والشراب، كما يحتاج إلى إشباع ميوله بشراء ما ترغب فيه نفسه ، وفضلا عن هذا ، حاجته إلى وسائل المواصلات ، وحاجته إلى دليل يسترشد به فى معرفة ما يشاهد من صور الحياة فى مكان السياحة وهذا هوالكسب فى صورته المادية التى تعود على مكان السياحة بالمال .

أما الكسب الأدبى أو المعنوى ، فهو الكسب المتمثل فيما يراه السائح من تاريخ مكان السياحة ، وحاضر هذا المكان ، حيث يرى آثار التاريخ ، وحيث يرى صورة الحياة التى يمارسها الناس بما بلغته هذه الحياة من حضارة وتقدم وتطور .

ومثال هذا ، مايجرى على أرض مصر ، حيث يرى السائح القادم من أماكن مختلفة ، آثار مصر القديمة ، ويرى كيف تحيا مصر فى مدنها وقراها ، وفى هذه الرؤية ما يدرك به أن مصر على غير ما كان يتصوره من خلال القراءات التى لاتقدم مصر للعالم بحقيقة ما هى عليه من حضارة عريقة ، وتقدم عظيم، فالسياحة إذن كسب للسائح . وكسب لمكان السياحة ؛ ومن أجل هذا حرصت كل الدول على العناية بشؤون السياحة ، حتى جعلت للسياحة وزارة مستقلة سميت (بوزارة السياحة) .

وخلاصة القول : إن السياحة حياة لها شأنها فى حياة الفرد ، وحياة الناس فى مكان السياحة .

وليس هذا أمرا فرضته الحياة فى هذا العصر ، بل هو أمر ملازم لحياة الإنسان فى كل العصور ، فالإنسان فى كل الأماكن فى حاجة إلى الجديد دائما ، وفى حاجة إلى التزود بالمعارف والعلوم ، وفى حاجة إلى السعى من أجل طلب الرزق .

والانتقال من مكان إلى آخر ، سبب من أسباب الرزق ، كما نبهنا القرآن الكريم إلى هذا بقوله تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض ﴾(1) وفى قوله تعالى : ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾(2) .

وما كان حَثُّ القرآن على الهجرة والانتقال ، إلا لما تضيفه الهجرة من جوانب النفع إلى حياة الإنسان .

وقد تنبه العلماء ، والأدباء إلى أثر السياحة فى حياة الإنسان فكتبوا فيها الكثير .

وما أجمل ما قال الإمام الشافعى - رضى الله عنه - فى الحث على الرحلة والسفر . حيث يقول :

سافِرْ تجد عِوَضاً عَمَّنْ تفارقهُم
وانْصَبْ(3) فإن لذيذ العيش فى النصب
إنى رأيت رُكود الماء يفسده
إنْ سال طاب وإن لم يَسِلْ لم يطب
والأسد لولا فراق الغاب ما افترست
والسهم لولا فراق القوس لم يصب

ففى قول الإمام الشافعى ما يبين أثر الحركة فى حياة الناس تلك الحركة التى نجنى ثمرتها حين ننتقل ، كما يجنى ثمرتها من ننتقل إليهم .

---

(1) سورة الأنعام آية 11 . (2) سورة النساء آية 97 . (3) انْصَبْ : اعمل بجد ونشاط .

سيناء(*)

*****

كانت سيناء دائما منذ أقدم عصور التاريخ هى الأرض المصرية الطيبة التى قدستها الكتب السماوية ، والتى شهدت كثيرا من الهجرات والرسالات والأحداث .

ففيها كلم الله موسى عليه السلام حين اختاره للرسالة ، وأراه من آياته الكبرى ، وفيها مر أبو الأنبياء إبراهيم وزوجته سارة فى الطريق من أرض كنعان إلى أرض مصر ، ثم اجتازها يوسف عليه السلام وهو صغير عندما غدر به إخوته ،واجتازها إخوة يوسف بين أرض مَدْيَنَ[1] ومصر فى سنوات الجدب ، ثم تبعهم يعقوب النبى عليه السلام[2] واجتازتها أيضا مريم فراراً بطفلها «عيسى» المسيح من طغيان الرومان وكيد اليهود.

وفى العصور الأولى للمسيحية كانت سيناء هى ملجأ المسيحيين المخلصين الذين فروا بدينهم من اضطهاد الرومان .

كذلك كانت سيناء مهبط الكنعانيين[3] والعبرانيين[4] وكانت طريق الهكسوس إلى مصر ، وطريق «دارا»[5] «والإسكندر» وكانت طريق أحمس وتحتمس ورمسيس إلى سوريا والعراق ، وطريق عمرو بن العاص ، وطريق صلاح الدين لطرد الصليبيين ، وطريق العثمانيين إلى مصر وإفريقيا ، وهى حلقة الوصل بين إفريقيا وآسيا ، بين وادى النيل وما يليه من بلاد العرب ، وكذلك بين فلسطين والجزيرة العربية وسوريا والعراق شرقا .

تلك بعض الإشارات إلى الجانب التاريخى والروحى لشبه جزيرة سيناء ، وليست هذه الإشارات التاريخية والروحية هى كل ما يجعل لسيناء مكانتها لدى شعب مصر بل هى جانب ، تحققت معه جوانب أخرى جعلت سيناء جزءًا أصيلاً من الحياة المصرية على المستوى الجغرافى ، والمستوى الاقتصادى .

(*) انظر (الطريق إلى القدس) محمد دياب (إصدار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية) .

(١) مدين : سكنها قوم (شعيب) عليه السلام ، وهى بالقرب من بلاد الحجاز .

(٢) ارجع إلى قصة يوسف وإخوته فى القرآن الكريم «سورة يوسف» .

(٣) الكنعانيون ، نسبة إلى أرض «كنعان» وهو الاسم الذى أطلق على أرض فلسطين قبل استيلاء الإسرائيليين عليها (انظر - الموسوعة العربية الميسرة جـ ٢) .

(٤) العبرانيون : الإسرائيليون . (٥) دارا : أحد ملوك الفرس .

فهى البوابة الشرقية لمصر ، وهى الامتداد المساحى لأرض مصر ، الذى يتيح لنا إقامة المنشآت العمرانية ، والمشروعات الاقتصادية ، واستصلاح أراضيها ، وهى من زاوية أخرى تحوى فى باطنها كثيرا من الثروات المعدنية ، والبترول .

وفى سيناء مجال للزيارات السياحية ، حيث الآثار الدينية ، والمشاهد الطبيعية ، مما أغرى رجال الأعمال باستثمار أموالهم بإقامة المنشآت السياحية ؛ ففى الجنوب جبل موسى الذى تلقى عليه موسى الوصايا العشر ، وعلى سفح الجبل يوجد دير (سانت كاترين) التابع للمسيحيين الأرثوذكس .[1]

وفى التاريخ القريب كانت سيناء موضع النزاع السياسى بيننا وبين إسرائيل ، إذ وقعت تحت الاحتلال الإسرائيلى فى حرب ٦٧ ، ثم جلا عنها الإسرائيليون ، وعادت إلى السيادة المصرية وهى الآن إحدى المحافظات المصرية .

أما عن جغرافيتها ، فمساحتها (٥٦ ألف كم٢) مثلثة الشكل ، قاعدتها فى الشمال ساحل البحر المتوسط ، وتنتهى جنوبا برأس محمد على البحر الأحمر ، ويحدها شرقا خليج العقبة ، وغربا خليج السويس ، وجهاتها الجنوبية جرانيتية شديدة الارتفاع ، وأعلى جبالها : جبل كاترينا ، وهو أعلى جبال مصر .

(١) انظر الموسوعة العربية الميسرة .

توشكى بين الإنماء والإيواء(*)

*****

يتضمن مشروع توشكى إنشاء ٢٧ مدينة جديدة لا يصح الاندفاع إلى إنشائها دون اعتبار للخبرة التى اكتسبناها فى إنشاء مدن أخرى مثيلة فى الماضى القريب أو البعيد ، أو على الأقل منذ إنشاء مدينة العاشر من رمضان سنة ١٩٨٢ .

فلعل فى إنشائها وإنشاء المدن الأخرى التى جاءت بعدها ما يساعد على إضاءة الطريق لإنشاء المدن المرجوة فى توشكى وعددها (٢٧) مدينة على مدار الأعوام العشرين المقبلة .

من مفاخرنا التى تتردد على الألسنة على مدار الأعوام الستة عشر الماضية بدءا بمدينة العاشر من رمضان ، تلتها مدينة السادات ثم مدن أخرى مثل العامرية ، ومدينة ٦ أكتوبر ومدن ١٥ مايو ومدينة السلام ...

وهناك عشرة تجمعات جديدة حضرية تحيط بمدينة القاهرة ، كل هذا العدد يسجل لمصر أنها كانت تنشئ المدن الجديدة بمعدل مدينة فى كل عام في المتوسط منذ عام ١٩٨٢م .

ولكن هل نحن أنشأنا بالفعل كل هذه المدن إنشاءً كاملا متكاملا بمعنى ما إذا كانت هذه المدن قد استكملت بالفعل كل مقومات المدينة حتى الآن .

هذا السؤال مهم لكى تكون نظرتنا إلى المستقبل نظرة واقعية فى ضوء ما تم إنجازه فى الماضى دون إفراط فى التفاؤل ، ودون تفريط فى المستقبل بالإفراط فى التشاؤم ، ولكيلا يتوه منا الطريق علينا أن ننظر إلى عناصر خمسة كان لابد من توفيرها لتحقيق الغاية من إنشاء هذه المدن ، وهى : ١- الإيواء : الهدف الكافى .

٢- الاستثمار ، ٣ - فرص العمل ، ٤- الخدمات الشخصية ،

٥- الخدمات الأخرى .

الإيواء : كان مقدرًا أن يتوجه إلى مدينة العاشر من رمضان عدد معين من السكان ، وهذا العدد لم يتحقق منه سنة ١٩٨٢ إلا أربعة فى المئة من العدد

(*) من مقال نشر بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٨/٣/٢٧ د/ عبد الفتاح فراج : كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة .

المستهدف لهذا العام ، ولم يتحقق فى عام ١٩٨٩م سوى ٩,٨ فى المئة من عدد السكان المستهدف لهذا العام . كما أن مدينة السادات لم يتحقق فيها من السكان سوى ٣,٢ فى المئة من حجم السكان الذى كان مستهدفاً لها بعد عشر سنوات من إنشائها ، وأحسب أن المدن الجديدة الأخرى لم تكن أسعد حظا من تلك المدينتين فيما يتعلق بأهدافهما السكانية ...

المستلزمات الاستثمارية : المدن : ١٥ مايو ، والعاشر من رمضان ، والسادات و٦ أكتوبر كانت التكلفة الاستثمارية ٦,٢ مليار جنيه وهو مبلغ يكفى للتدليل على ضخامته أن نقول إنه يمثل حوالى ثلث الاستثمارات اللازمة لعمل البنية الأساسية لكل مدن الجمهورية أو تمثل ٩٠٪ . من جملة تكاليف المرافق في هذه المدن الجديدة، ففى مدينة العاشر من رمضان مثلا كان نصيب الفرد من تكاليف البنية الأساسية فيها حوالى ٨٠٠ جنيه ، وكان نصيبه فى الخدمة ٧٥٠ جنيها ، وهو الذى لم تتجاوز مساهمته فى شراء الأرض أكثر من خمسة وثلاثين جنيها : أى أن الفرد مدعوم بأكثر من عشرين ضعفا لنصيبه فى أى من الخدمات الأساسية ، ومدعوم بحوالى أربعين ضعفا فى الاثنين معا .

وكان يمكن أن يكون هذا الدعم أخف فيما لو حققت هذه المدن أهدافها السكانية المنشودة ، فتوزع بذلك تكاليف البنية الأساسية وتكاليف الخدمات على عدد أكبر من السكان ، ولكن هذا لم يحدث .

فرص العمل : على سبيل المثال لا الحصر فى مدينة السادات لم تتجاوز ٨,٢ من إجمالى العمالة المستهدف لنفس العام ، وأن العمالة الصناعية لعام ١٩٨٢م كان مقدرا لها أن تصل إلى ٥٠٪ . من إجمالى العمالة المخططة لذلك العام ، ولكنها للأسف لم تتجاوز ١٥٪ . .

الخدمات الشخصية : ليس فى المدن الجديدة دور حضانة للأطفال الرضع خصوصا فى حى الإسكان المنخفض التكاليف حيث يخرج الزوجان للعمل ، وكذلك الأمن بوجود قسم واحد متمركز داخل المدينة والحاجة تدعو لتدعيم وتقوية قوة الأمن على مستوى المدينة ككل .

الخدمات الأخرى : تشكو المدن الجديدة من ضعف خدمات الانتقال والنقل والمواصلات والاتصالات ، إذ أن المتاح من وسائل النقل يتولاه أصحاب المركبات

الخاصة بتكلفة عالية ، أما الاتصالات فهى قاصرة أو منعدمة ، أما الخدمات الثقافية والترفيهية فإنها ضعيفة ، رغم ما لهذه الخدمات من أهمية قصوى فى الحد من شدة الانحرافات ، والأمراض النفسية والعصبية والاكتئاب ، يتضح مما سبق أن إنشاء المدن الجديدة فى الماضى كانت تحيط به فى الماضى تفاؤلات وطموحات لم تتحقق كلها .

ومن الخير كل الخير فيما يتعلق بإنشاء المدن الجديدة فى المستقبل أن تتواضع الطموحات ، وأن تعتدل التفاؤلات ، وأن نتحاشى المغالاة فى تحديد المستويات المستهدفة ، وأن يكون مستوى العمل فى هذه المدن هوالتدرج فى الارتقاء إلى المستويات الأعلى ، وليس القفز العالى إلى كل ما هو فوق .

ورغم أن الإيواء مطلب شعبى ، وواجب حكومى إلا أنه لا معنى له ، ولا جدوى منه إلا إذا كان مصحوبا بالإنماء الذي يشد الناس شدا إلى التكسب عن طريق العمل بحيث لا يضطر عامل المدن القديمة إلى السفر إلى مقر عمله فى المدن الجديدة والعودة إلى النوم فى المدينة القديمة ، ولا أن يضطر إلى العمل فى مدينته الأصلية ثم يسافر لينام فى المدينة الجديدة ، فالإيواء والإنماء لابد أن يتلازما فيعيش العامل قرب مقر عمله بعيدا عن المدينة الأصلية ، وهذا فى حد ذاته هدف يخفف من حدة الزحام فى المدينة الأم ، والتزاحم على أبواب الرزق فيها ، والإنماء لا يتم عن طريق التشييد والبناء فقط بل لابد من تكامل عدد من الأنشطة المتنوعة ، ولابد من تأسيس كل نشاط منها على قواعد متينة تضمن له الاستمرار والإدرار ؛ ذلك لأنه إذا صح أن التعمير والبناء بالطوب والأسمنت والحجر سوف يضمن الإيواء، فإن الإنماء هو الذى يعمل على تغيير شكل الإيواء ومعناه ، فيتحول تلقائيا إلى إقامة واستيطان ، على أننا لابد أن ندرك منذ البداية فى كل ما يتعلق بإنشاء أى مدينة جديدة أننا لا نتحدث عن الحجر والبشر أو عن الإنماء والإيواء باعتبارها مراحل متتالية تؤدى فى النهاية إلى النماء للتوطين وبالتوطين فإننا لابد أن نعتبرها منظومة من العناصر التى تتضافر معا فى حزمة موحدة إذ لابد من النقل ومن شق الطرق ، ولابد للإيواء من مشاريع الإسكان ، ولابد للإنماء من تجاوز مرحلة الإيواء إلى مرحلة الإقامة والتوطن ، فلا معنى لأى استيطان فى مكان لا ناقة فيه ولا جمل، أو فى مساحات ليس فيها نماء ، ولا فى واد غير ذى زرع إلا إذا كان بجواره بئر زمزم أو البيت الحرام .

توشكى
معزوفة الأرض والذهب والإنسان

*****

(تحقيق صحفى أجرته صحيفة الأهرام مع العالم المصرى ، الدكتور فاروق الباز مدير مركز الاستشعار عن بعد فى جامعة بوسطن الأمريكية ومدير البحوث بوكالة ناسا للفضاء)[1] (بتصرف) .

الأهرام - ما أهم النتائج التى تم التوصل إليها عن تحليلات التربة بمشروع توشكى ، ونوعية المحاصيل التى تناسبها ، بعد زيارتك للمنطقة مع وفد من الخبراء الأمريكيين ؟

د . الباز - إن نتائج تحليل عيِّنات التربة أثبتت بشكل قاطع أن أراضى توشكى غنية بالمعادن الصالحة للزراعة المستقرة والآمنة ، حيث توجد هذه المعادن بتركيز عالٍ يساعد على النمو الطبيعى للنبات دون الحاجة إلى استخدام الأسمدة ، والمخصِّبات الكيميائية بكثرة ، وهو ما يميز الإنتاج الزراعى بمشروع توشكى عن الدلتا ، وظهر ذلك بوضوح فى استجابة الأرض لزراعة القمح والشعير والخضراوات والبرسيم ، والموالح والنخيل والأشجار الخشبية ، وذلك فى الأحواض التجريبية التى أقيمت حول أول بئر للمياه الجوفية وكانت كبرى المفاجآت هى استجابة الأرض لزراعة القمح وتحمله لطبيعة المناخ الحار بجنوب الوادى ، وهو عكس التوقعات القديمة التى كانت تؤكد استحالة زراعته مع درجة الحرارة العالية ، والسبب الرئيسى، لذلك هو ارتفاع درجة خِصْب الأرض : لأنها جاءت من ترسيب ، ونتجت عن وديان عديدة كانت بالمنطقة .

الأهرام - كثر الحديث عن ظهور آثار فى منطقة توشكى ، لحياة الإنسان المصرى القديم ، ما دلالات هذه الاكتشافات ؟

د . الباز - منطقة توشكى ليست منطقةَ تجمّع زراعى وعمرانى جديد وسط الصحراء ، بل منطقة لها حضارة وتراث قديم ، وشهدت الامتداد الطبيعى لحياة الإنسان المصرى القديم ، الذى عاش واستقر بها فى شكل تجمعات بشرية لمدة

(١) أهرام الجمعة ١٩٩٨/٣/٢٠ . (أجرى التحقيق ، الصحفى : عماد حجاب) .

تتراوح بين ثلاثة إلى خمسة قرون ، قبل أن ينتقل إلى دلتا النيل ، والدليل على ذلك، الاكتشافات الأثرية التى عثر عليها من مقابر ومنازل من الأحجار الضخمة التى يصل ارتفاعها إلى ثلاثة أمتار ، بالإضافة إلى فخّار وهياكل ضخمة منحوتة من الصخر وبقايا لمرصد فلكى للشمس والنجوم ، وأجزاء من أقدم بئر للمياه الجوفية بالمنطقة ، وشواهد لبقايا نباتات وأشجار لا تنمو إلا بالقرب من المنخفضات المائية والمياه الجوفية والبحيرات ، مما يدل على انتقال الإنسان المصرى الأول الذى عاش بالمنطقة من الرعى وتربية الحيوان والزراعة .

الأهرام - تعانى مصر من فجوة غذائية بسبب عدم كفاية إنتاجها الزراعى وزيادة عدد السكان ، هل يمكن تكرار مشروع توشكى وشرق العوينات فى منطقة أخرى.؟

د. الباز - إن صور الأقمار الصناعية والبحوث الميدانية ونظم المعلومات الجغرافية التى استخدمت فى دراسة الصحراء المصرية الشرقية والغربية كشفت أن التربة الصالحة للزراعة بها تصل إلى ثمانية ملايين فدان بينما المساحة المزروعة الآن بالدلتا والصعيد لا تزيد على سبعة ملايين ومئتى ألف فدان ، وبالتالى فهناك مناطق أخرى يمكن إقامة مشروعات زراعية عليها ... وعُقدت أول ندوة عالمية فى مصر فى شهر فبراير بمشاركة وفود أجنبية ومصرية لدراسة الاحتياجات الفعلية العلمية ، والتكنولوچيا اللازمة لدراسة الصحراء المصرية والخروج بنتائج محددة عنها ، تمهيدا ليكون هناك أكثر من مشروع زراعى جاهز للاستثمار فى مصر على أساس علمى صحيح .

الأهرام - اتجهت مصر لدراسة إطلاق أول قمر صناعى للبحوث العلمية ، ما مدى أثره فى مشروعات التنمية ؟ وهل نحن فى حاجة إليه ؟

د. الباز - إن الهدف من إطلاق القمر الصناعي هو تخصيصه لدراسة الصحراء؛ لأن الأقمار الحالية ليس من بينها ما هو متخصص لدراسة الصحراء ، فى الوقت الذى يوجد فيه دول عديدة بها مساحات شاسعة من الصحراء غير مستغلة وبخاصة بالدول العربية والإفريقية المجاورة ، والتى يمكن أن نتكاتف معها فى مشروعاتها المستقبلية فى ظل التكتلات الدولية ، فالعالم لم يتجه للتنمية بكل أبعادها ، وفى حاجة إلى استغلال موارده الطبيعية ، ويمكن لمصر أن تكون رائدة فى هذا المجال بعد تنفيذها لمشروعيها فى توشكى وشرق العوينات ، كما أنها من أوائل دول العالم

التى أقامت مركزا للاستفادة من صور الأقمار الصناعية منذ عام ١٩٧٢ مع رحلة السفينة « أبو للو » إلى سطح القمر ، ومصر قادرة بإمكاناتها العلمية وجامعاتها ومراكز البحوث بها - على توفير الخبراء المتخصصين والقاعدة التكنولوجية والأساسية لها ، حيث تم وضع خطة تستمر خمس سنوات لإعداد الدراسات اللازمة لها ، وخروجها إلى حيز التنفيذ .

ويتم حاليا دراسة إنشاء شبكة عربية لاستخدامات الأقمار الصناعية ، والاستشعار عن بُعد بين الهيئات العلمية العاملة فى نفس المجال لتنشيط التعاون بينها فى خدمة قضايا التنمية والمشروعات الجديدة .

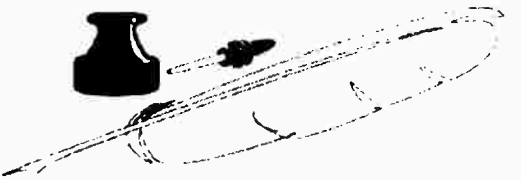

لن تذلّ يا وطنى

*****

أقامت قوات الاحتلال نقاط تفتيش على مداخل مدينة الإسماعلية وذلك بعد أن اشتدت هجمات الفدائيين عليهم وعلى معسكراتهم ، وكان الفدائيون يتسللون فى الظلام ويقومون بأعمال رائعة أخافت القوات الإنجليزية ، وكثرت تقارير القواد العسكريين التى كانت ترسل إلى لندن والتى تشرح الظروف القاسية التى يعيش فيها أفراد قواتهم وجنودهم ، وعلى الرغم من الاحتياطات الكثيرة التى اتخذها هؤلاء القادة لمحاولة صد هذه الهجمات إلا أنها ما كادت تخمد قليلا حتى تعود للاشتعال مرة أخرى ، وبطرق مختلفة ووسائل متعددة .

كان مجدى ابن تاجر كبير بوكالة البلح وهو فتى فى الحلقة الثانية من عمره عاش مترفا ينفق من ثروة أبيه الطائلة والتى جمعها من شراء مخلفات الحرب ، وكان والده معروفا لدى سلطات الاحتلال ، إذ كان لا يهمه إلا التجارة والمكسب ، وكان يوصى ابنه أن يبتعد عن هؤلاء الشباب الذين يزعمون أنهم وطنيون ، ويكونون خلايا فدائية تقض مضجع المحتلين وتؤرق جفونهم ، وكان يقول لابنه : إنها أعمال صبيانية فقوات الإنجليز قادرة على سحق هؤلاء الصبية الصغار الذين تتسم أعمالهم بالطيش والحمق ، وأن الحكومة لها وسائلها فى إجلاء الإنجليز عن وطننا .

واستجاب مجدى لنصائح أبيه فكان يقود سيارته عبر نقاط التفتيش ومعه جواز المرور ليخلص بعض الأعمال التجارية فى الإسماعيلية .

وذات يوم وهو فى طريقه إلى الإسماعيلية والشمس تكاد تغيب لاحظ أن نقطة التفتيش فيها حركة غريبة ، فالقوات الموجودة كثيرة وهم مدججون بالسلاح ، ويوجد ازدحام حول النقطة ، سيارات كثيرة واقفة تنتظر الإذن لها بالدخول ، ولكن الجنود الإنجليز يمنعونهم ، ويشيرون إليهم بأن يتنحوا جانبا ، واستكان قائدو السيارات للأوامر ، وأوقفوا سياراتهم على جانبى الطريق ينتظرون الأوامر حتى يواصلوا سيرهم .

وأخذ الجميع يتحدث كل منهم إلى الآخر ويتساءلون لماذا هذا اليوم بالذات نجد إجراءات الأمن مشددة ؟ ،لماذا كل هذا الحشد من الجنود شاهرى أسلحتهم وهم يلبسون ملابس الميدان وعلى أهبة الاستعداد لإطلاق نيران أسلحتهم وكأنهم فى ميدان قتال .

وسرت شائعات كثيرة عن سبب ذلك ، فمن قائل بأن هناك سرقات حدثت فى معسكرات الجيش الإنجليزى ، وهذه القوات تريد أن تقبض على هذه العصابة ، ومن قائل بأن هناك إخبارية عن أن بعض الفدائيين سيقومون بعملية كبيرة ، وقد نمى خبر هذه العملية لقوات الاحتلال فبادرت بإرسال قواتها عند نقاط التفتيش حتى تستطيع أن تتعامل مع هؤلاء الفدائيين قبل أن ينفذوا عمليتهم .

ولعل هذه الشائعة الأخيرة كانت أكثر انتشارا . وكانت القصة تزداد كلما انتقلت من مجموعة إلى أخرى . وبعضهم يدعى أنه يعرف بعض هؤلاء الفدائيين وأنهم مسلحون تسليحا قويا وسلاحهم مسروق من المعسكرات الإنجليزية .

وطال وقوف السائقين . ووقف مجدى كبقية الواقفين يستمع لهذا الكلام ، وكأنه لا يعنيه فى شئ . فهو مؤمن بكلام أبيه بأن هذه الأعمال الصبيانية لن تخرج الإنجليز بل تزيد الأمور تعقيدا وتتسبب فى قتل عشرات من شبابنا دون جدوى .

وإنما إخراجهم يأتى عن طريق الحكومة التى سوف تتفاوض معهم ، ومهما طالت هذه المفاوضات فسيأتى اليوم الذى سوف يقتنع هؤلاء المحتلون بأنه لا جدوى من وراء احتلالهم لمصر . إنهم إن عاجلا أو آجلا لابد وأن يجلوا عنها .

ولما ضج السائقون والناس المنتظرون بدت حركة غريبة من قوات الاحتلال ، وذهب بعض المدنيين إلى قائد القوة . وطلبوا منه أن يسمح لهم بالعبور فمعهم نساؤهم وأطفالهم وقالوا له : يمكن أيها القائد أن تفتش كل سيارة وتتأكد من شخصية ركابها وتسمح لمن تتأكدون من صحة بياناته . فسكت قليلا ، ثم قال لهم: لا مانع ، ثم أمر جنوده بتطويق السيارات ، وبدأ فى إدخال السيارة الأولى ، وأخذ الجنود يقومون بتفتيشها بدقة باحثين عن أسلحة أو أى أوراق أو أشياء تثبت شكوكهم ، ولكنهم لم يجدوا شيئا فى السيارة الأولى ، ولا فى الثانية . وهكذا بدأت السيارات تتحرك ببطء سيارة وراء الأخرى . وتطول مدة التفتيش ، وقد حاول مجدى أن يتحدث مع القائد الإنجليزى وأن يفهمه بأنه ابن التاجر الكبير الذى يشترى مخلفاتهم معسكراتهم وسياراتهم المحطمة وأنه ليس من الفدائيين ، ولكن الضابط أصر على أن يقف فى دوره وأن يخضع للتفتيش كبقية المصريين ، ونهره بشدة .

وامتثل مجدى لعجرفة القائد الإنجليزى . وسرح ببصره قليلا فى الظلام المحيط بنقطة التفتيش وذهبت أفكاره إلى بعيد : نحن فى وطننا وبلادنا فلماذا يتحكم هؤلاء فينا ؟! إن كلام أبيه لا أساس له من الصحة ، هؤلاء مغتصبون ! هؤلاء محتلون يريدون أن يذلوا مصر وأبناءها . لا لا لن تذل يا وطنى .

ولم يخرجه من أفكاره هذه واستغراقه فيها إلا صوت جلبة وجمع من جنود الاحتلال يقبضون على شاب ويضربونه بوحشية وهم يصيحون هذا فدائى ! هذا مخرب ! ويسحبونه فى غلظة إلى قائدهم وهم يوسعونه ضربا بمؤخرات بنادقهم ، وركلا بأقدامهم والشاب كلما وقع على الأرض هب واقفا يريد أن يقاوم ، ولكنهم يتكاثرون من حوله ، وبسرعة هائلة خطف الشاب بندقية أحد الجنود وانبطح على الأرض وأطلق النار بطريقة عشوائية فأصابت عددا من قوات الإنجليز ، ولكنهم عاجلوه بطلقات غزيرة من مدافعهم الرشاشة التى اخترقت معظم أجزاء جسده الذى تفجر منه الدم غزيرا على رمال الصحراء .

ووجد مجدى نفسه مدفوعا بقوة داخلية ليخطف البندقية من جثة الشاب المضرجة بالدماء ، ثم يواصل إطلاق النار فأصاب القائد الإنجليزى ، ولكن الرصاص انهال عليه وهو يصرخ لن تذل يا وطنى تحيا مصر ، وتحول مجدى إلى جثة هامدة لشهيد من شهداء مصر ، ومرت أيام . وذكرى مجدى لا تفارق ذاكرة أبيه الذى علق صورة كبيرة لابنه الشهيد وصورة أخرى لزميله الفدائى وقد عرف شخصيته وأهله فقد كان طالبا فى كلية الطب . ويشير إليهما بدماء هذين الشابين ارتوت أرض مصر ، وجلا الإنجليز بعد أن تأكدوا من أن وجودهم أصبح مستحيلا . وتأكد الشيخ على والد مجدى بأن ابنه استشهد وهو يردد لن تذل ياوطنى - تحيا مصر ، ويرسل زفرة حارة وهو يقول ليتك عشت لترى ثمار تضحيتك.

مصر والتتار

*****

أصيب العالم العربى منذ أكثر من ثمانية قرون بكارثة تمثلت فى وجود الشعب الهمجىّ . شعب التتار . أو الشعب التترىّ . وهو شعب قام على العدوان لكل من عداه . وقام على حب الغزو والاستيلاء على كل ما تمتد إليه يده من حياة الشعوب التى يتمكن من الوصول إليها .

منبت هذا الشعب . أواسط آسيا . ومنهجه الغزو الذى لا غاية له إلا السيطرة والإفساد وجمع الغنائم .

عاشوا حياتهم فى ظل من القسوة والطغيان والتجبر . دون أدنى أثر من رحمة أو شفقة ، وكانت كؤوس شرابهم هى جماجم قتلاهم .

ساروا من أواسط قارة آسيا فى اتجاه الغرب يحطمون كل ما يصلون إليه ، وما كان بمقدور دولة أن ترد عدوانهم إذ كانوا على وفرة من العدد فى جنودهم ، وعلى شدة من غلظة القلوب . وعلى جهالة تتيح لهم أن يفعلوا بالشعوب المغلوبة ما يحلو لهم من قتل الصغار والكبار وسبى النساء ، وأسر الرجال ، وإذلال الحكام . حتى إذا سرى خبر قدومهم إلى بلد . كان خبر قدومهم لدى أهل هذا البلد طامة كبرى ، وهلعا لا يعدله هلع . ولقد فعلوا ما فعلوا بكل البلاد التى غزوها . وكانت بغداد - عاصمة الخلافة الإسلامية - إحدى ضحايا تلك الهمجية . إذ قتلوا منها ما قتلوا ، وسَبَوْا من نسائهم من سَبَوْا . ودكّوا الديار . وخربوا الأماكن . وألقوا بكتب العلم ماألقوا فى نهر الفرات . وعبثوا بكل ما وقعت عليه أيديهم حتى لاذ الناس بالفرار إلى أى أرض .

وكان على كل بلد أن يترقب مصيره على أيدى التتر حين يأتون إليه ، ومن بين البلاد التى سال لها لعاب التتر ، مصر ، فقد كانت لديهم مطمعا يغريهم بغزوها ، والاستيلاء عليها .

كانت مصر فى ذلك الزمن تحت حكم المماليك برياسة الملك المظفر سيف الدين قُطُزْ . وهو حاكم مسلم من أصل فارسى نشأ فى بيت مسلم تولى الحكم فى فارس حتى قضى عليه أولئك التتر وهم فى طريقهم إلى بغداد ، فشتتوا شمل هذا البيت ، وبعثروا جوانب الدولة . وشاء الله أن يصل قطز إلى مصر فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب زوج شجرة الدر .

وعاش (قطز) فى كنف الملك الصالح نجم الدين ، ثم فى كنف شجرة الدر التى تولت الحكم بعد الملك الصالح ، ثم آل إليه الحكم بعد ذلك وصار ملكا على مصر . فى الوقت الذى سعى فيه التتار إلى مصر[1] .

كان على الملك سيف الدين قطز أن يحشد كل القدرات المصرية ، وكان عليه أن يسخر كل شئ فى مصر لمواجهة هذا الخطر الداهم ، خطر التتر الذين لا يملكون دينا ، ولا شفقة ، والذين عاشوا حياتهم فى انتصارات متتابعة ، لم يكن فيها من يصدهم أو يقهرهم .

وقد نجح هذا الملك العظيم ، الذى استمد عظمته من إيمانه بالله ، ثم من طبع الشعب المصرى الذى وقف إلى جانبه .

وجاء التتر إلى مصر ، وكان المصريون على أُهْبَةِ الاستعداد لملاقاته ودارت المعركة فى (عين جالوت) .

وانتصرت مصر ، ودحرت عدوها الذى لم يقو على دحره أمم وبلاد كانت قوية . فى عددها وعدتها .

وكانت هزيمة التتار على يد المصريين منعطفا جديدا زالت به عظمة التتار . واستعاد به الشعب العربى كله ، بل العالم كله ، أمنه وطمأنينته من مخاوف الغزو التترى .

---

(١) ارجع إلى قصة (وا إسلاماه) بقلم : أحمد على باكثير .

مصر والعرب

*****

على مرّ التاريخ المصرى كله ، منذ عهد الفراعنة وهو عهد بعيد - لم يذكر التاريخ مصر فى معرض المعتدين ، أو المستعمرين . أو المناوئين . ولم يذكر التاريخ يوما كانت مصر فيه تتقاعس عن نصرة من يحتاج إلى نصرتها .

فهى فى التاريخ بين حالين : إما أن تكون محل الاعتداء عليها من غيرها أو مصدر العون لغيرها . والاعتداء عليها يشير إلى ما تملكه من مقومات الحياة . فتغرى هذه المقومات من يسعى إليها غازيا بغية الحصول على ثرواتها ، وكونها مصدرا للعون . هو صفة الخلصاء المحبين للخير لدى الناس جميعا .

ولقد كان دخول الإسلام إليها منذ القرن الأول الهجرى - السابع من الميلاد ، فاتحة علاقة طيبة مع العالم العربى الذى صدّر الإسلام إليها .

توثقت عُرَى الصلة بين مصر والعرب توثقا عرفه الناس وسجله المؤرخون على النحو الذى يكشف كيف كانت مصر صدرا رحبا . ويدين رؤوفتين فى شعورها نحو العرب جميعا .

حتى إذا صار العرب فى العصر الحديث . دولا . لكل دولة أقدارها وشؤونها ، لم تكن مصر بموقعها التاريخى ، والجغرافى . والأدبى إلا بما يكون عليه الأخ الأكبر الذى لايغريه من إخوته إلا حسن المودة ، وجمال القربى ، وبراءة الصلة .

ولما تتابعت الأحداث على العرب ، من حروب واستعمار . كانت مصر دائما عند نصرة القضايا العربية ، ومازال التاريخ الحديث حيا ينبض بكل المواقف الأخوية التى وقفتها مصر مع العرب فى شرقهم ، وغربهم . فلم تدخر مصر وُسْعًا فى مد يد العون للعرب فى الجزيرة العربية وماحولها ، قبل ظهور البترول . ولم تدخر وسعا فى مد يد العون لحركات التحرر من الاستعمار فى شمال إفريقيا وتشهد العلاقة المصرية الجزائرية ، بما كان من مصر نحو الجزائر فى مناهضة الاستعمار الفرنسى ، وما كان منها بعد جلاء الفرنسيين . إذ أعانت الجزائر على رَتْق ما أحدثه الفرنسيون خلال مئة واثنين وثلاثين عاما من الاستعمار . حيث أعانتها على تمكن شعبها من لغته العربية ، بما أمدتها به من المعلمين . وقد حملت عنها كثيرا من أجورهم .

ومن قبل كان موقفها مع الشعب الليبى إبّان الغزو الإيطالى ، وحين نبتت على الأرض العربية قضية فلسطين ، حملت مصر على عاتقها هموم هذه القضية بكل ما أدت إليه هذه القضية ، حتى صارت جزءًا من التعليم فى المدارس المصرية ، وجزءا من العقيدة الدينية ، وجزءا من مشاعر الناس فى بيوتهم ، وأنديتهم ، وجزءا من وطنيتهم ، وصارت سبيلا من سبل التربية القومية لكل تلميذ ، وكل معلم ، وكل مواطن على اختلاف وظائف المواطنين ، ومواقعهم السياسية ، والدينية ، والاجتماعية ، والفنية .

وحين ثارت رياح الحرب بين العراق والكويت ، كانت مصر عند السلوك الواجب فى الوقوف بين شقيقين أحدهما معتد قوى ، والآخر مغلوب ضعيف ، فوقفت بقوتها إلى جانب الضعيف ، ووقفت بالنصح والإرشاد إلى جانب القوى ، وهذه رؤية لايجوزها إلا قوى عاقل مخلص لامأرب فى مساندته أو نصحه .

ومازالت مصر فى موقعها من الأشقاء العرب لاتسعى فى صلتها بهم إلا من خلال الشعور بأنها السند ، وأنها العون ، وأنها النصير ، حتى إذا دب الخلاف بينها وبين شقيقة عربية لم يكن هذا الخلاف إلا نوعا من التحاور ، ونوعا من البحث عن تقريب وجهات النظر ، دون أن يكون خلافا مبنيا على مطمع ، أو مبنيا على شعور بالكره أو الرغبة فى الفُرقة والنزاع .

تلك هى مصر ، لم يسجل التاريخ لها يوما واحداً كانت فيه على غير ما تقتضى به الأخلاق فى الجوار أو فى غيره من أسباب الصلة .

ضبط النفس

*****

فى مسيرة الحياة يواجه الإنسان كثيرا من أمورها التى تستدعى الغضب ، وتحفزه إلى ردود الأفعال على نحو لاتحمد عاقبته .

ولاتقتصر دواعى الغضب على إنسان دون آخر . أو عمل دون غيره . أو موقف من مواقف الحياة دون موقف آخر ، فهى موجودة مادامت العلاقات قائمة بين الناس ، وهى موجودة - أيضًا . بوجود الاختلاف بين طبائع الناس ، واختلاف أهوائهم ، وثقافاتهم . ففى المنزل ، وفى المدرسة . وفى المصنع ، وفى الملاعب ، وفى مختلف مواقع العمل ، فى كل هذا وغيره - على تعدده وتنوعه - يلاقى المرء كثيرا من مسببات الغضب وضيق الصدر .

والغضب فطرة فى الإنسان . وهو سلوك نفسىّ ، ليس للإنسان حيلة فى وجوده لديه ، والناس فى هذا سواء . لكنهم ليسوا سواء فى مدى ضبط النفس عند وجود دواعى الغضب .

فإذا كان الغضب فطرة فى الإنسان ، فإن كبح النفس أمامه ، أمر يدخل فى نطاق قدرة الإنسان ، إذ يستطيع عند حدوث أسبابه أن يصرف النفس عن استجابتها له ، ولولا أن ضبط النفس أمر يقوى عليه المرء ما حض الدين على لزومه وما حضت الأخلاق على اتباعه ، فلا أَمْرَ إلا بالممكن المستطاع ، ولا نهى إلا عن شئ يمكن اجتنابه، وهكذا كل الأوامر والنواهى .

وضبط النفس وصرفها عن الغضب ، صفة تكشف فى الإنسان عن مدى قدرته وقوته .

فما قيست قوة الإنسان - فى القياس الخلقى الصحيح . والقياس الاجتماعى الصحيح - بقوة العضلات ، واحتمال البدن ، بل قيست بمدى قدرته على احتمال أسباب الغضب ، تلك القدرة التى تبلغ مكانتها السامية ، حين تبلغ أسباب الغضب قدرا مرتفعا .

فلا يعد ضبط النفس . أن يتغاضى المرء عن أمر بسيط لاأثر له ، أو أمرلا يستوجب غضبا . إنما ضبط النفس الذى يوصف صاحبه بالقوة ، هو ضبطها أمام

عظائم الأمور ، أو ما يثير انفعال النفس ، أو أمر يدفع إلى عقوبة شديدة .

ذلك هو ضبط النفس الذى يدعو إليه الدين ، وتحث عليه مكارم الأخلاق ، ومن أجل هذا كان قول الرسول ﷺ ، فى حديثه الشريف «**ليس الشديدُ بالصُّرَعَةِ**[1] **وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب**» .

ففى الحديث الشريف بيان للمفهوم الصحيح لقوة الرجل ، فما هى بشدة الجسد أو استحكام بنائه الذى يصرع به من يغالبه .

ذلك أن أقدار الرجال ومكانتهم إنما توزن بميزان الرزانة ، والسيطرة على النفس حين تواجه ما يغضبها ويثير حفيظتها[2] ، فلا يذهب الطيش بهدوئها .

أما كون ضبط النفس علامة على القوة الصحيحة ؛ فذلك لأن المرء فى كظمه[3] للغيظ ، وفى امتثاله للهدوء إنما يغالب نفسه ، ويقهر انفعاله فإن غلب النفس ، وقهر الانفعال ، فهو القوى ، وفى قوته النفسية دليل على القوة العقلية ، لأن مغالبة النفس وضبطها أمر يحتاج إلى النظر فى عاقبة الغضب ، ومنفعة الحلم ، ولايؤتى هذا النظر ثمرته إلا بإعمال العقل والتفكير والموازنة بين الأمور .

ويكفى أن يكون كظم الغيظ إحدى علامات المتقين ، كما وضّح القرآن الكريم صفات المتقين بأنهم : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [4].

ولجمال صفة الحلم وحبس الغيظ ، حفظ التاريخ منذ قرون عديدة أسماء الحلماء ، ومنهم (الأحنف بن قيس) فلولا حلمه ماذاع اسمه ، وفوق الحلماء على وجه الأرض سيد الأنام محمد بن عبد الله ﷺ ، فبمثل ما كان حليما مع رفاقه وذويه كان حليما مع أعدائه ، حتى اشتهر عنه أنه لم يغضب لشىء فى الدنيا ، بل كان غضبه دائما لله ، وهو الغضب المحمود المشكور ، فما سوى الغضب لله تعالى ، إنما هو غضب الضعفاء .

---

(١) الصُّرَعة (بفتح الراء) : هو الرجل الغلاب فى المصارعة لا يهزمه أحد . وكلمة (صُرَعة) تطلق على المفرد والمثنى والجمع رواه أبو داود فى باب الأدب وأحمد فى المسند (٣٨٢/١) .

(٢) الحفيظة : الغضب .

(٣) كَظْم الغيظ : التحكم فيه ومنعه من الظهور .

(٤) آل عمران آية ١٣٤ .

آداب الضيف

*****

التحلى بالسلوك المهذب يزيد المودة بين الناس ، ويغرى بالتقارب ، ويجعل الألفة بينهم أمراً نابعا من شعور صادق ، وقلب مفعم بالرضا ، وجوانب الحياة الاجتماعية جميعها تستلزم السلوك المهذب ، فيما كَبُرَ من هذه الجوانب أو صغُر ، فجميعها تحتاج إلى الآداب المتعلقة بكل جانب من جوانب العلاقات الاجتماعية .

من بين هذه الآداب آداب الضيف ، وقد يقول قائل : وماذا على الضيف من آداب وهو الزائر الذى يخضع لأحوال المضيف وظروفه ؟

والجواب ، أن الضيف مرعىٌّ من قبل مضيفه ، بالحرص على راحته ، والحياء منه وإشعاره بكل ما يطيب به خاطره أثناء الزيارة ، وكل هذا قد يغرى الضيف بما يثقل على قلب المضيف ، من صور الإثقال التى تتعارض مع السلوك الراقى المهذب ، وذلك حين ينفرد الضيف بحديث طويل ، يفرضه على المضيف ، وما للمضيف فى هذا الحديث ما يثير اهتمامه ، فلا يملك إلا أن يسمع مضطرا ، والسأم يحيط به ، والشعور بالضيق يملأ صدره .

أو حين يطيل الضيف من وقت الضيافة فى غير حاجة إلى طوله ، بعد أن بلغ وقت الضيافة مبلغه من أمور الضيافة ، أو دواعى الزيارة .

ولقد ضرب القرآن الكريم لنا مثلا بما أورده فى قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ(١) وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾(٢) .

والآية الكريمة ، تضرب لنا مثلا ، وتقدم لنا النموذج الذى يجب أن نحتذيه فى مجال الضيافة بإحدى صورها ، وهى الدعوة إلى الطعام .

فإذا ما كانت هناك دعوة إلى طعام ، فليس من اللائق بالضيف أن يأتى دار مُضيفه قبل أن يكون الطعام مُعَدًّا ، وقبل أن يَفْرُغ أهل الدار من إعداد ما تستوجبه شئون الضيافة ففى هذا إرباك لهم إذ يقعون فى حرج الإكرام وهم فيما هم فيه ، من عمل يصرفهم عن ضيفهم .

---

(١) إناه : نضجه . (الإنَى : مصدر للفعل أنَى . ومن معانيه : أنَى الطعام ، أى : نضج) .
(٢) سورة الأحزاب آية ٥٣ .

إلى جانب هذا فقد بين المنهج السلوكى فى الآية أن يكون الدخول رهينا بالدعوة، وفى هذا ما فيه من مراعاة حرمات البيوت . كما بين المنهج ألا يكون استئناس الضيوف بحديث بعضهم إلى بعض إلى الحد الذى يطول به الوقت ، وفى هذا ما فيه من إثارة الضيق لصاحب الدار ، ومنعه من قضاء مصالحه وأموره .

فإذا ما كان الضيوف على هذا النحو من السلوك كانوا من الثقلاء الذين لم يتأدبوا بما يكون من حسن المسلك .

وفى حياتنا الاجتماعية كثير من المآخذ فى مجال الزيارة ، بما يقوم به بعض الزوار من الزيارات المفاجئة غير المسبوقة بموعد متفق عليه ، أوما يقوم به بعضهم من اصطحاب أطفالهم وهم على حال من حب الفوضى ، فتدفعهم الفوضى إلى العبث بما فى دار المزور من أشياء لا ينبغى العبث بها . ومن المآخذ - أيضا - ألا يرعى الضيوف ما يجب عليهم من موضوع الحديث ، فلا يثقل الضيف على مضيفه بقضاياه أو همومه ، إذا كان بمقدوره أن يتناول من الأحاديث ما يجعل زمن الضيافة يجرى فى حال من السرور ، والابتهاج ، أو كان بمقدوره أن يجعل حديثه متناغما مع مايراه من حال المزور أثناء الزيارة .

فإذا ما قامت زيارة الضيف بأصولها السلوكية المهذبة ، من مراعاة وقت الزيارة ، وعدم إطالة وقتها ، واختيارالطيب من الحديث ، ومراعاة أحوال المضيف ، والحضور إلى ما دُعوا إليه من طعام ، فى وقته المناسب - إذا ما كان ذلك مرعيا ، كانت الضيافة بكل عناصرها أمرا محببا إلى النفس ، داعيا إلى الاستزادة منها ، مشيعا لجو الألفة التى تطيب بها نفوس الأفراد فى المجتمع .

ومن عجب أن القرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، قد بينا للناس كيف يكون مسلكهم فى الزيارة والضيافة ، والناس لا ينحون فى هذا إلى ما اعتادوه بعيدا عن النصائح الدينية فى هذا الإطار .

ولو لم يكن لهذه الآداب أثر فى سلامة العلاقات بين الناس ، ما نبه إليها الدين ، وما كان من سبب لينزل بها الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم .

كلمة (الاستعمار) بين مفهومين

*****

إذا وقعت أعيننا على كلمة (الاستعمار) أو بلغت مسامعنا . فإن صدورنا تنقبض. ولا نستشعر الراحة النفسية مع هذه الكلمة .

ذلك لأننا جميعا على الكرة الأرضية ، لا نرى من المعانى لهذه الكلمة إلا معنى واحداً ، هو (استيلاء دولة على أخرى) ، حتى صارت كلمة (الاستعمار) من الكلمات التى تثير همة الأحرار . وتثير لدى الناس كلهم رغبة فى إزاحتها من الحياة.

ولو أننا سألنا تلميذا صغيرا فى سن العاشرة - مثلا - : هل تحب الاستعمار ؟ ، لأجاب من فوره : لا .

ولو سألناه : لماذا تكره الاستعمار ؟ ، لأجاب بقوله : إن الاستعمار هواستعباد للشعوب .

والإجابة نفسها هى ما نسمعها من الكبير المثقف . إذا ما طلبنا منه أن يحدثنا عن الاستعمار .

ومثل هذا الأمر يذكرنا ، أو ينبهنا إلى أن معانى الكلمات تتأثر بظروف الحياة . فظروف الحياة ، وحركة الناس ، وصور العلاقات بينهم ، يمكن أن تَخْرُجَ بالكلمة من معناها الأصلى إلى معنى آخر لا علاقة له بهذا المعنى الأصلى .

فكلمة (الاستعمار فى معناها الحقيقى ومعناها الأصلى . هى كلمة دالة على (العمران) ، والعمران خير ونفع للناس ، ولو وقفنا عند مادة (عَمَرَ) فى اللغة العربية، وما يُشْتق منها . لوجدنا كل صور الاشتقاق تدور حول معانى : طول العمر، والكثرة ، والبناء . والدين وكل هذا إنما هو من وجوه الخير .

بناء على هذا ، كان من الصحيح أن تكون كلمة « الاستعمار » من الكلمات المحببة إلى النفس . وكان من الصحيح ألا تثير لدينا شيئا من غضب أو ضيق .

لكنها فى عصرنا هذا لم تكن إلا مبعث الضيق والثورة : وعلة هذا أن الشعوب القوية التى ملكت ما لا تملكه الشعوب الضعيفة من عوامل السيطرة ، كآلات الحرب وكثرة الرجال ، هذه الشعوب أرادت بما تملكه من جوانب القوة أن تغزو غيرها ،

لتغنم خيراتها ، وتستحوذ على ما لديها ، وتصنع لنفسها سيادة جديدة على أرض جديدة .

ولكى تحقق هذه الشعوب القوية مأربها[1] رأت أن تستتر وراء هدف تجد به سبيلا إلى تحقيق هذه المأرب ، ولم يكن هذا الستار إلا أن تتدعى أنها أرادت تنوير الشعوب الجاهلة ، وأنها سعت إلى الشعوب المغلوبة على أمرها لتسترد لها حقوقها التى سلبها الظالمون ، وأنها إنما أرادت العَمْرَ ، بما فيه من خير لكل الناس .

هذا هوالستار الذى اختفت وراءه الشعوب القوية من أجل الاستيلاء على الشعوب الضعيفة ، لكنها عند حلولها بأرض الشعب الضعيف ، تلقى بالقناع المزيف، وتظهر الوجه الحقيقى الذى يكشف عن حقيقة مطامعها ، فبدلا من أن تزيح الظلم عن الشعوب المظلومة من حكامها ، ترهق هذه الشعوب بمزيد من الظلم ، وبدلا من أن ترحم الشعوب من المذلة والهوان ، تلقى على هذه الشعوب مزيدا من المذلة والهوان .

مثال هذا ، ما حدث حين جاء (نابليون) فى حملته الفرنسية التى غزا بها مصر. فقد ادّعى أنه جاء ليحمى المصريين من ظلم المماليك ، لكنه هو ورجاله وجنوده لم يكن إلا مصدر الشر للمصريين ، حيث ظلم وقتل ، ومن قبله كانت الحملات الصليبية التى جاءت بجيوشها وقادتها من ملوك أوربا ، وهى تزعم أنها جاءت لتحمى المسيحيين من قسوة المسلمين ، وما كان هناك ظلم من المسلمين للمسيحيين ، وما كانت هناك شكوى لمسيحى من مسلم ، لكن الهدف فى ذاته كان هدفا نبيلا لو أن المسلمين - فعلا - كانوا قساةَ القلوب فى معاملتهم للمسيحيين .

لكن أهل أوربا حينئذ لم يكونوا إلا غزاةً ، جاءوا للاستيلاء على خيرات الوطن العربى .

ومن بعد الفرنسيين ، جاء الإنجليز إلى مصر . فكان مجيئهم شرا وهلاكا للحياة المصرية ، حتى أجلتهم ثورة يوليو فى ١٩٥٤ ، كل هذه الصور وغيرها فى مختلف بقاع الأرض تكشف لنا أن الغزاة فى كل مكان على الكرة الأرضية قد استتروا وراء كلمة «الاستعمار» فى غزوهم للشعوب الجاهلة الضعيفة ، حتى إذا تمكنوا منها كشَّروا عن أنيابهم ، وأظهروا نواياهم الحقيقية .

(١) مأربها : هدفها وغايتها .

وبناء على هذا ، فإن كلمة (الاستعمار) التى تحمل معنى الخير ، والتى استتروا وراءها ، لم تكن عند الشعوب الضعيفة إلا كلمة تحمل كل معانى السوء والهلاك والدمار والخراب والمذلة .

والمفهوم من هذا ، أن الكلمة فى اللغة ، تأخذ معناها من واقع الحياة ، فقد تكون الكلمة جميلة ، لكنها تتحول من صورة الجمال إلى صورة القبح ، تبعا لظروف الحياة التى أدت إلى تحويل الكلمة من معنى إلى معنى آخر .

ومثال هذا كلمة (الاحتلال) فمعنى الكلمة ، هو النزول بمكان من الأماكن ، لكنها فى عصرنا الحديث ، تحولت من معنى النزول بالمكان إلى معنى السيطرة والسيادة . تماما ككلمة (الاستعمار) .

والمفهوم من كل ما حملته السطور السابقة أن يكون لدينا مزيد من الوعى فى فهم الألفاظ والكلمات ، وأن ندرك معانى الكلمات فى إطار الظروف التي تخرج الكلمة من معناها الأصلى إلى معنى آخر لا علاقة له بالمعنى الأصلى .

وعلى قارئ هذا الموضوع أن ينقب عن الكلمات التى خرجت عن معناها الأصلى إلى معانٍ جديدة فرضتها ظروف الحياة .

الصناعة المصرية فى عهد الفراعنة

*****

امتازت الصناعة منذ أول عهدها بطابع لم يفارقها فى العصور القديمة ، واشتهر الصانع المصرى بالجودة والإبداع ، وكانت أساليبه فى التفنّن والابتكار داعية لنشر مصنوعاته فى الأفكار المعروفة حينئذ .

لقد تناول المصريون كثيرا من الصناعات ، فأخرجوا المعدنيات من الأرض ، وصهروها واتخذوا منها حليهم وأدواتهم ، وأظهروا فى ذلك مهارة فائقة ، تشهد بها الآثار المكشوفة من الحلى ، وآلات الزراعة المصنوعة من النحاس ، والتماثيل المسبوكة من الفضة والذهب وغيرهما .

كما برعوا فى الصياغة والترصيع بالجواهر ، حتى وصلوا فى ذلك إلى غاية لم يصل إليها غيرهم ، وفى دار الآثار المصرية من تلك الجواهر والنفائس ما هو برهان ساطع على إجادتهم فن السبك والترصيع ، وفيها من التيجان والأساور والأقراط والقلائد والخواتم ما يستوقف النظر ويبعث على الإعجاب .

وكانوا ذوىْ علم بالكيمياء ، وخبرة عظيمة بأسرارها ، يدل على ذلك تحنيطهم الموتى تحنيطا قاوم البِلى آلافا من السنين ، وكذلك يدل على خبرتهم الكيميائية ، ما نراه على توابيتهم ، وجدران هياكلهم ومعابدهم من الألوان المختلفة الزاهية .

ومهروا فى صناعة السفن ، وصناعة العجلات ، فأنشؤوا السفن العظيمة ، وأكثروا من العربات المتقنة للحرب والصيد والانتقال .

أما الزراعة فكانت من شواغلهم الكبرى ، فقد صنعوا لها من الآلات ما هو مستعمل فى شكله الأصلى حتى اليوم ، ونظموا مجارى المياه ، وأقاموا القناطر ، وحفروا الجداول ، ومارسوا الصناعات الحقلية ، كتجفيف الفواكه وعَصْرها وتربية الدواجن ، والنحل وعملِ الجبن والزبد .

وبلغوا الأوْجَ[1] فى فن البناء ، وإن الفكر ليدهش من الوسائل التى كانواينقلون بها الصخور الضخمةَ من مقاطعها[2] إلى مسافاتٍ شاسعة ، ثم يرفعونها بعد ذلك إلى علو شاهق ، كما فعلوا بحجارة الأهرام .

---

(١) الأوْج : العلو . (٢) مقاطعها : جمع (مقطع) وهو مكان تقطيع الحجارة .

وأتقنوا صناعة النسيج ، والغَزْل ، فغزلوا الكتَّان خيوطا ، ونسجوه ببراعة عظيمة، وكانوا يزينون المنسوجات بالرسوم والزخارف الدالة على سلامة الذوق فى تأليف الألوان .

وعُنُوا بالتجارة عناية فائقة ، وجلبوا لها الخشب من البلاد الأجنبية ومن غابات بلادهم حيث كانت الغابات كثيرة ، يشرف عليها موظف كبير يختص بشؤونها ، ويتعهد أمورها ، وبين أيدينا كثير من الفُلْك[١] والسُّرُر[٢] والصناديق والكراسى وغيرها من المصنوعات الخشبية ، وجميعها مُحكم الصنع جميل الزخرفة .

ولهم فى صناعة الفخار القِدْح[٣] المُعَلَّى[٤] فجعلوا منه الآنية والتماثيل على اختلاف أشكالها وصورها .

وحذَقُوا[٥] فى صناعة الزجاج ، وتاريخهم فى صناعته يرجع إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد ، وأظهروا منه فى أول الأمر نوعين : أبيض وأسود ، ثم تفننوا فى تلوينه ، وبالغوا فى إتقانه حتى أخرجوه على أصباغ مختلفة ، وأنواع بديعة.

فلا غَرْوَ[٦] فقد كانوا أهل حضارة عظيمة ، والحضارة تجنح[٧] بطبيعتها إلى أفانين الترف والزينة .

---

(١) الفُلْك : المراكب . ويطلق (الفُلْك) على (المركب) فهو للمفرد وغيره .
(٢) السُّرر : جمع (سرير) .
(٣) القِدح (بكسر القاف) : النصيب .
(٤) المعَلَّى : العظيم .
(٥) حذقوا : مهروا وبرعوا .
(٦) لا غرْو : لا عجب .
(٧) تجنح : تميل .

التليفزيون مدرسة المجتمع

*****

هيأ العلم للإنسان كثيرا من المبتكرات العلمية التى تمكن الإنسان من حياة طيبة نافعة ، تجمع بين الضرورة والترف ، أو بتعبير آخر ، تجمع بين اللازم لسلامة الحياة الإنسانية ، واللازم لاستشعار المتعة النفسية .

والضرورة والمتعة ، عمادان للحياة ، تحتاج إليهما المسيرة البشرية .

ومن بين ما منحه العلم للإنسان من ضرورة الاحتياج ، ومتعة النفس ، هو ابتكار «التليفزيون » .

ولا غرو إن قلنا : إن التليفزيون مدرسة للمجتمع ، لأن وصفه بالمدرسة أولى من غيره من أوصاف أخرى ، ذلك لأن لفظ (المدرسة) هوإشارة إلى نوع الحياة ، أو نوع المفاهيم التى يجب أن يقوم عليها وجود التليفزيون ، (فالمدرسة) تعبير يضم إلى جوانبه مفاهيم الحياة التي يرتضيها العقل الجاد المعتدل ؛ إذ تجمع المدرسة بين النفع والمتعة فى إطار من القيم الخلقية ، فهى العلم البنّاء ، وهى اللهو العفيف الذى يزيد النفس نشاطا ، وهى المدخل إلى أبواب الحركة البشرية فى أجلّ غاياتها .

من هنا كان اعتبار (التليفزيون) مدرسة ، اعتبارا يرتضيه العقل ، وترتضيه الأخلاق الرفيعة .

ومن هنا -أيضا - كان التليفزيون من خير مبتكرات العلم ، ومن خير ما يمكن أن يستعين به المجتمع على وحدة الثقافة .

ووحدة الثقافة - فى مجتمع من المجتمعات - إنما تعنى أن تكون مفاهيم الناس فى هذا المجتمع عند رؤية واحدة فى السياسة ، والدين ، والسلوك ، وغير هذا ، ولا يتحقق هذا المفهوم المتحد إلاّ من خلال جهاز يشهده الناس جميعا فى وقت واحد، ويسمعونه فى وقت واحد . والتليفزيون هو هذا الجهاز .

وخلاصة القول فى منافعه أنه الضرورة التى لا مناص منها إذا أردنا أن نضيف إلى الناس فى علومهم ومعارفهم وسلوكهم ، مالا يتمكنون من الوصول إليه فى الكتب أو الصحف ، بل فى المدارس النظامية والجامعات .

هذا هو المفهوم الصحيح الصائب فى الحكم على دور التليفزيون فى حياتنا ، فهل أدى التليفزيون دوره على النحو الذى يجعله المدرسة العلمية الخلقية ؟

وهل كان التليفزيون - فعلا - وسيلة إلى ترسيخ المعانى الرفيعة التى تثير فى الناس نوازعهم نحو كل شىء نبيل ، مفيد ؟

ذلك هو الواجب الذى يرتضيه العقل لدور التليفزيون فى أى بلد من بلاد الكرة الأرضية ، لكنّا لا نستطيع أن نرسم لكل بلد منهجه فى العلوم والأخلاق ، فلكل وطن عاداته ، وعقائده ، وسلوكه ، ولكل وطن حياته التى صاغها من دينه ، وثقافته ، وتاريخه ، وميوله ، وأحلامه .

فما تجرى عليه أوروبا ، يغاير ما تجرى عليه أمريكا ، وما تتخذه الدول فى إفريقيا ، يخالف ما تجرى عليه الدول فى أوروبا وأمريكا ، وآسيا ، وما يناسب المسلمين يغاير ما يناسب الآخرين ، وما يناسب المسلمين والمسيحيين فى مصر هو على نقيض ما يناسب المسلمين والمسيحيين فى دول أخرى غير مصر .

فى ظل هذا ، كان من الضرورة العقلية أن نفرّق بين دور التليفزيون فى مكان ، ودوره فى مكان آخر .

وفى ظل هذا التفريق يكون اختيار البرامج ، وصياغة الموضوعات ، بما تشمل هذه البرامج وهذه الموضوعات من أفكار ، وأعمال فنية ، وأشخاص .

ففى مصر - على سبيل المثال - يتعايش الناس فى ضوء عقيدتين دينيتين هما الإسلام والمسيحية ، وكلا الفريقين يلتقى مع غيره فى إطار من قيم الحياة النبيلة ، التى لا تسمح لشئ غير صحيح أن يصيب الأسر المصرية بشئ فيه خروج عن الخلق القويم .

فللمرأة المسلمة والمسيحية - فى الحياة المصرية - سلوك اجتماعى رفيع تتلاقى فيه الاثنتان .

وللطفل المسلم والمسيحى - فى الحياة المصرية - سلوك اجتماعى ، يتلاقى فيه الاثنان .

وكذلك سائر أفراد الطائفتين ، وجميعهم إنما يخضع لما يفرضه السلوك المستقيم .

فى ضوء هذا المفهوم ، لابد أن يكون التليفزيون موافقا فى كل ما يطرحه على الشاشة ، لطبيعة هذه الحياة ، فى دينها ، ومبادئها ، وفى احتياجاتها النفسية ، واحتياجاتها الاجتماعية، واحتياجاتها العلمية . وعليه فى هذا الشأن أن يجعل مواده وموضوعاته وأفكاره ومحاولاته من صنع أبناء الوطن ، وما من وطن إلا ولديه العلماء ، والمفكرون ، والمعلمون ، والأدباء ، والفنانون ، والصناع ، والحِرفيُّون ، وغيرهم .

على يد هؤلاء جميعا ، تنشأ المواد التليفزيونية التى يطرحها القائمون على أمر التليفزيون فى بلد من البلاد .

وسوف يسأل سائل :

إذا كان على التليفزيون أن يصنع موضوعاته من واقع الحياة على أرض الوطن ، فهل من المعقول أن ينصرف عما أبدعته الدول المتحضرة من صور الحياة ؟ ، وهل من المعقول أن تحيا دولة من الدول بعيدا عما بلغته الدول الأخرى ؟

والجواب : أنه أمر غير معقول ، فلكل بلد أن يستفيد مما وصل إليه بلد آخر ، ولكل إنسان أن يعلم ما بلغه الآخرون من علوم ، وفنون ، والحياة بكل ما فيها ما بلغت حدها من الترقى إلا من واقع الاحتكاك بين الشعوب ومن مواقع التأثير والتأثر بين الأفراد ، وبين المجتمعات .

ولكن . ما الشئ الصحيح الصائب الذى يجب علينا أن ننقله عن الآخرين ؟

ما الذى يجب أن نبيح لأبنائنا وبناتنا أن يشهدوه من معروضات الدول الأخرى على شاشات التليفزيون ؟

ما الذى يجب أن نسمح بعرضه على شاشة التليفزيون - فى مصر - لتشهده ربات البيوت ، ويشهده الناس جميعا فى مصر ؟

حين يدرك القائمون على أمر التليفزيون ما يصح عرضه ، وما لا يصح عرضه على الشاشة الصغيرة ، فإننا نقول حينئذ : إن التليفزيون المصرى قد أدى غرضه ، وبلغ غايته . ونقول عن يقين : إن التليفزيون مدرسة المجتمع.

أما إن كانت غاية التليفزيون فى مصر ، وفى وطننا العربى أن يفسح المجال لكل ما صنعت العقول بعيدا عن الخلق ، وبعيدا عن الضمير ، وبعيدا عن مطالب الحياة المستقيمة ، فما هو بالمدرسة ، وما هو بالشئ المفيد .

الصحافة مرآة الشعب وضميره

*****

ما حاجة أى مجتمع إلى الصحافة ؟ وهل إذا خلا مجتمع من العمل الصحفى ، أيكون ذلك نقصا يفتقد به المجتمع أمرا من أموره ؟

لعل قائلا يقول : وماذا يَفْقِدُ المجتمع إذا فَقَدَ الصحافة ؟

وجواب هذا كله : أن الصحافة فى حياة الناس هى المرآة التى تتيح لكل فرد من الناس أن يعرف كيف تجرى الحياة من حوله ، ولو أن الإنسان - بطبعه - لا يعنيه ما يدور حوله ، ولو أنه يستطيع الحياة بمفرده دون حاجته إلى معرفة ما يجرى لدى غيره .

لو أن هذا وذاك صحيح ، ما كنا فى حاجة إلى وجود الصحف ، لكنا فى حياتنا هذه ، لا نملك أن نقول : إننا فى غنى عن الصحف ولا نجد من يؤيدنا ، حين نقول : إن الصحافة عمل يستوى وجوده مع عدمه .

ذلك ؛ لأن الصحافة ليست وجها من وجوه الترف فى الحياة الاجتماعية . وليست عملا يغنينا عنه عمل آخر ، بل هى العمل الذى يمكّن كل إنسان من ممارسة حياته فى وعى ، وفى فهم ، وفى نضج .

ولا يتم الوعى والفهم والنضج إلا إن كان المرء على بينة مما يجرى حوله ، وذلك هو المفهوم الذى يجعل الصحافة فى حياتنا ركنا ركينا لا نقوى على تغافله ، بعد أن اتسع العمران ، وازداد عدد الدول ، وتشعبت الحياة فى كل مكان ، وفى هذا كله ما يستوجب وجود الصحافة التى تأخذ بيد قارئها إلى ما لا يقوى على الوصول إليه إن أراد الاطلاع على أحوال وطنه ، وأحوال الناس فى مواطن أخرى ، أو أراد الاطلاع على ما يجرى بين الناس فى مختلف البقاع .

إذن فالصحافة عون على أن يستكمل الإنسان معارفه ، وعون على المعرفة التى تستلزم جهدا أو مشقة ، حيث تأتى بها الصحافة للقارئ فى غير جهد أو مشقة .

ولقد كان لتطور الطباعة وترقيها الفنى ، أثر عظيم فى تطور الصحافة ، من

جانب الإخراج الفنى ، وسرعة إعدادها للقراء فى ساعات وجيزة ، تمكن القراء من متابعة أحوال الأمة وأحوال العالم فى حينها أو بعد وقوعها بوقت قصير .

كذلك كان تطور وسائل المواصلات ذا أثر عظيم ؛ إذ ساعدت هذه الوسائل على وصول الصحف فى يوم إصدارها ، كما ساعدت على إيصالها إلى مختلف أنحاء العالم ، فأتاحت لكل قارئ أن يطلع على ما يجرى فى وطنه ، وهو مغترب فى بلاد نائية .

والصحافة فى عصرنا ، لم يعد أمرها مقصورا على الخبر ، لكنها تعدت ذلك إلى أبعاد جمة مختلفة المقاصد ، حيث صارت الصحف مجالا واسع المدى ، يتناول الكثير من المعارف و العلوم والفنون ، والشؤون الاقتصادية والسياسية والدينية والأدبية ، وما يجرى من الأحداث التى تتعلق بمصالح المواطنين ، وغير هذا من كل ما يتصل بشؤون الناس فى مختلف مجالات الحياة على تعددها وتنوعها ، بمعنى أنها تتسع للحياة بأسرها بكل دواعى الحياة ، بل إن من الصحف ما هو مخصوص صحفى فى مجال واحد . كمجال المرأة أو مجال الزراعة ، أو مجال الاقتصاد ، أو بعمل الرياضة أو الصناعة ، أو المستحدثات العلمية ، أو الطب ، ففى كل مجال من هذه . ظهرت الصحف التى اختصت بشأن واحد من هذه الشؤون ، تعالج أحواله ، و نظمه ، معالجة تستوفى كل مافيه ، حتى صارت الصحف جزءا من الحياة فى مجتمع من المجتمعات .

وتبعا لهذه الضرورة صارت الصحافة عملا له قواعده ، وأسسه ، ونظرياته وعلومه ، وله معاهده العلمية التى ترسى هذه القواعد وما تلاها ، على نحو علمى منظم ، فإذا كان أمر الصحافة على هذا الشكل الذى جعلها جزءا من حياة الناس ، فمن الضرورة أيضا ، بل من الضرورة القصوى ، أن يجرى العمل الصحفى فى إطار من القيم التى تجعل للمجتمع شخصيته البريئة من الأمراض الخلقية ، والتى لايستباح فيها ما يخل بالمعانى السامية التى يسىء إليها كثير ممن يمارسون العمل الصحفى ، حيث يُباح تناول أعراض الناس بما يؤذيهم ، وحيث تتبع بعض الصحف عورات الناس ، وحيث تَجدُّ بعض الصحف فى نشر مالا ينبغى نشره ، ممّا يضر بالناشئة من الشباب ، أو يفتح الباب لشيوع الجريمة . ومن عجب أن يتم هذا باسم «العمل الصحفى » بينما يبرأ العمل الصحفى الصحيح من هذا وأشباهه ، فما لهذا كانت الصحافة فى أصلها ، أو فى مسيرتها داخل المجتمع .

إنها فى ميدان (المعرفة) ، تثقيف ، وتعليم ، وإضافة . وهى فى هذا الميدان مدرسة - غير أنها ليست نظامية - تقدم الجديد من العلوم ، وتنبه إلى ماجَدَّ فيه العلم والعلماء .

وهى فى ميدان (الخلق) ، إرشاد، ونصح ، وكشف عن مواطن القيم الإنسانية النبيلة .

وهى فى ميدان (الخبر) إعلام للناس بما يجرى من الأحوال العامة التى يجب أن يطلع عليه الناس ، من أخبار السياسة فى الوطن وخارجه ، ومما يصدر من قرارات، وما يجدّ من أمورٍ تتصل بقضايا الناس ومشاكلهم .

وهى فى هذا وغيره ، وفى كل وجهاتها ، وفى كل مقاصدها ، إنما يجب أن تلزم دواعى الخلق الرفيع ، وأن تكون عند رجاء المصلحين ، وعند رجاء الآباء والأمهات والأزواج والزوجات ، ورجاء هؤلاء جميعا أن تكون الصحافة عونا لهم ، وعونا لأولى الأمر فى شيوع الفضيلة ، وإثارة الرغبة لدى الناس فى حب كل ما هو نافع ومفيد .

ولا يتحقق هذا الوجه المنير للصحافة فى مجتمع من المجتمعات إلا بإعداد الصحفى إعداداً خلقيا ،وعلميا ، ولغويا ، حتى إذا رأى أن ينشر على الناس خبرا من الأخبار ، انتقى من الأخبار ما يحذرهم من شر ، أو يحضهم على الخير ، بعيدا عن إثارة الغرائز ، أو الإساءة إلى الآخرين ، أو كشف ما ستره الله من عيوب الناس إلا إن كان الكشف أمرا يتعلق بأمن الناس ، أو سبيلا إلى الضرب على أيد المعتدين.

ذلك كله - بسلبه وإيجابه - ؛ لأن الصحافة سبيل من سبل الوعى العام لدى الناس ، وسبيل من سبل الوعى الخاص الذى ينحو إلى التبصير فيما يخص فئة معينة من الناس ، بمثل ما نرى فى المجلات المتخصصة .

وإذا جاز للصحافة فى غير مصر أو سائر العرب ، من صحافة الغرب أن تتجرد من الضوابط الخلقية ، فإنه بالنسبة للعرب جميعا ، وللمسلمين فى كل مكان، ولكل ذوى الفضيلة فى كل مكان ، أمر لايصح ولايجوز ولايستقيم ، ذلك ؛ لتعارض القيم الدينية لدينا مع قيمهم الدينية والخلقية .

إلا أن بعضا من صحفنا يأخذه بريق التقليد والمحاكاة ، فتحذو حذو الغرب فى أسلوبه الصحفى ، حيث يسعى هذا الأسلوب إلى اتساع مساحة الكسب المالى فى مجال البيع والتوزيع ، بما تعرضه الصحف من مجالات الإثارة ، وبما تعرضه من الموضوعات التى تجذب انتباه الناس ، والناس - دائما - فى ميل إلى ما يثير فضولهم ، ويثير رغبتهم فى التطلع إلى خفايا غيرهم ، دون النظر إلى نواهى الدين أو أوامره .

وخلاصة القول ، إن الصحافة عمل جليل الشأن لأنه يماثل فى أهدافه ، أهداف المدرسة والجامعة والمسجد ، ومنتديات التثقيف والتنوير ، وهى فى جميعها غاية ما يرجى من أجل إيجاد مجتمع يرضى عنه الله ، فإن أعانت الصحافة على تحقيق هذه الأهداف ، كانت عند جلالها و عند عظمتها ، وإن لم تكن كذلك ، فما هى بصحافة ، وما هى إلا عمل لسنا فى حاجة إليه .

المريخ [1]

*****

انبهر الإنسان منذ فجر التاريخ بما رأى فى سماء الأرض من شمس ساطعة نهارا وظلام دامس ليلا ، وكلما تمعن الإنسان فى سماء الليل رأى القمر يتغير فى شكله وموضعه ، يكتمل ثم يختفى بحساب ، وحوله باقة من الكواكب تسير فى مدارات وتعود إلى مواقعها بين أوان وآخر .

خلف كل ذلك رأى النجوم الثابتة فى مكانها تمثل تجمعات بأشكال عديدة، هكذا تعلم الإنسان أن الكون الفسيح هو من صنع خالق عظيم ، وضع كل شئ فى مكانه بحكمة وقدْرة إلهية .

كوكب المريخ خصوصا ، له تاريخ حافل فى فكر الإنسان لأنه دون كواكب المجموعة الشمسية بأثرها له لون أحمر باهر . وسماه علماء الفلك العرب «القاهر» ، ويقال إن مدينة «القاهرة» سميت هكذا ؛ لأن جوهر الصقلى سأل علماءه أن ينتظروا إشارة من السماء لتسمية المدينة الجديدة التى أمر ببنائها بالقرب من الفسطاط[2] التى كانت عاصمة مصر قبل عهده .

ولما كان كوكب القاهر فى صعود اختير اسم «القاهرة» للعاصمة الجديدة .

وبناء على ذلك تقدمت باقتراح إلى (الاتحاد العالمى لعلوم الفلك) طالبا تسمية أحد تضاريس المريخ باسم «القاهرة» وتم قبول الاقتراح بوضع «وادى القاهرة» اسما لأحد الأودية على سطح الكوكب ، وتشمله حاليا جميع خرائط الكوكب أينما طبعت فى العالم بأسره .

بعد استخدام المنظار الفلكى اتضح أن للمريخ قمرين وأن لون سطحه يتغير من وقت لآخر ، وقد اعتقد الكثيرون أن هذا الاختلاف فى الألوان يعنى أن هناك مخلوقات تزرع المحاصيل وتحصدها فى مواسم مختلفة ، وأثار هذا احتمال وجود كائنات عاقلة على كوكب قريب من الأرض .

(١) بقلم الدكتور فاروق الباز . (كتاب الطريق إلى المريخ للواء مهندس سعد شعبان) سلسلة عالم المعرفة .

(٢) الفسطاط : هى مصر القديمة التى بناها عمرو بن العاص ، وسميت بالفسطاط ، لأنه بناها فى المكان الذى أقام فيه الفسطاط (الخيمة) لنفسه عند مجيئه إلى مصر .

وبعد إرسال سفن الفضاء إلى المريخ ، أثبتت صورها أن التغيرات التى تطرأ على سطحه ليست بيولوجية (أى نتيجة لوجود نباتات تنمو وتجف) ، ولكنها تغيرات مناخية (أى تنتج عن حركة الرياح ونقل الأتربة من مكان إلى آخر) .

ومن أهم صفات المريخ أنه يشبه إلى حد كبير صحراء الأرض ، وقد اتضح ذلك فى رحلات استكشاف الكوكب بواسطة سفن فضاء مختلفة ، أثبتت أن الكوكب مرت عليه فى قديم الزمن عصور مطيرة كونت وديانا تشبه وديان الصحراء الغربية ، وبعد زمن جف المناخ واختفت الأمطار ولم يتبق غير الرياح كعامل أساسى فى بدء العواصف الترابية (بعضها يغطى الكوكب بأكمله) وينتج عنها تكوين الكثبان الرملية بأعداد كبيرة ؛ لذلك فإننا فى دراستنا لتضاريس المريخ نحاول فهم تضاريس الصحراء .

وقد ازداد الاهتمام بكوكب المريخ ازديادًا مطردا بعد أن اكتشف الچيولوچيون بقايا حفرية لما يشبه البكتريا على الأرض ، تم ذلك أثناء دراسة جزء من عينة من ثلاثة عشر نيزكا ذات تركيب كيميائى معين يحدد أن المريخ هو مصدرها، ويعنى هذا أن الكوكب ربما كانت به مخلوقات ولو بدائية عندما كانت المياه تسرى على سطحه فى قديم الزمان ، وقد دعم هذا الاحتمال إحياء مشاريع استكشاف الكوكب ليس فقط آليا ، ولكن بواسطة رواد الفضاء مستقبلا .

المرأة فى الأديان والعصور[1]

*****

اختلفت نظرة المجتمعات منذ القدم للمرأة ، فمن المجتمعات من احترم المرأة واعترف بحقوقها ومنحها هذه الحقوق ، ومن المجتمعات من احتقرها وصغر من شأنها واعتبرها مخلوقا يجب التحرز منه[2] ، ومنهم من ربط حياتها بحياة الرجل ، فلاتستحق الحياة بعد مماته . وكان الإسلام هو الدين الوحيد الذى حفظ للمرأة مكانتها وأعطاها كل الحقوق التى لم تطالب بها ، والتى لم تفكر فيها ، فأقرّ لها حقوقا كثيرة وكفلها لها[3] ودافع عنها ، وجعلها صنو الرجل[4] فى كل شئ ، من الناحية المدنية أو الجنائية ، من حيث الثواب والعقاب ، والقيمة الإنسانية ، وحرية الرأى والتملك والعمل والتعليم ، وحقها فى الميراث ، وكفل لها حق اختيار الزوج وحق الطلاق .

(وفى السطور التالية) جولة بين مختلف الأمم والأديان نعرف منها مكانة المرأة فى كل منها على حِدَةٍ ، لنقارن بين ما أعطته هذه المجتمعات والديانات للمرأة وما أعطاه الإسلام لها .

ففى الحضارة المصرية القديمة كان للمرأة أن ترث ، وتزاول الأعمال خارج بيتها فتعمل فى الحقول ، وتذهب إلى الأسواق ، وتمارس التجارة ، كان لها أن تملك وأن تتولى أمر أسرتها فى غياب زوجها ، وكانت قادرة على إجراء التصرفات القانونية دون إذن وليها سواء أكان الولى أباها أو زوجها ،ولها الحق فى اختيار من تشاء زوجا لها ، وكان حكماء المصريين يوجهون النصح للرجل ليعامل زوجته معاملة كريمة.

وكانت تؤول للمرأة المصرية أموال زوجها بمقتضى عقد الزواج وشروطه ، وكانت أموال الزوج تؤول لزوجته إذا مات ، بمقدار الثلثين ، وكان المصريون يهتمون بتعليم الفتيات الصغيرات عقائد الدين و آداب السلوك ، ولم يكن من الغريب أن تتولى المرأة فى مصر الفرعونية مناصب القضاء والكهانة والملك . ومن الملكات فى مصر (مرتين نبت) و(خنتكاوس) و (سبك نفرو) و (حتشبسوت) و(تى) زوجة أمنحتب .

---

(١) محمد عبد المقصود (المرأة فى جميع الأديان والعصور) (بتصرف) .
(٢) التحرز منه : الابتعاد عنه . (٣) أى ضمنها لها . (٤) الصنو : المثيل .

وعندما غزت الجيوش الأجنبية مصر أخذ مركز الرجل يقوى على حساب المرأة ، وفقدت المرأة حقها فى التصرف ، وحرمت من حق الميراث .

وفى بابل وآشور بالعراق : اقتربت مكانة المرأة من مكانة المصرية ، فقد سوى القانون بينها وبين الرجل فى معظم الحقوق ، وكان بوسعها أن تتعاقد وتؤدى الشهادة ، ولها مثل نصيب الرجل فى الميراث ولكلٍّ من الزوجين حق طلب الطلاق مع اقتسام مالهما ، ولكن كانت المرأة عرضة للحكم عليها بالموت غرقا إذا أقدمت على الطلاق وثبت عليها أنها زوجة مشاكسة . وفى شريعة (حَمُورَابى)[1] التى اشتهرت بها بابل كانت المرأة تحسب فى عداد المواشى المملوكة ، وكانت الإناث فى هذه الشريعة لايرثن آباءهن .

وفى الهند : كانت شريعة (مانو) تضع المرأة فى مكان منحط ، ولم يكن يُعْرفُ لها حق مستقل عن حق أبيها أو زوجها أو ابنها ، وفى حالة وفاة الأب أو الزوج وجب عليها أن تنتمى إلى رجل من أقارب زوجها ، وكانت لاتستطيع أن تهجر زوجها حتى وإن أصيب بالجنون أو الشلل ، وقد حرمتها التقاليد الهندية من الميراث ، وكان على المرأة الهندية أن تخاطب زوجها فى خشوع قائله : (يامولاى وياسيدى) ، وعلى الزوجة أن تخدم زوجها كما لو كان إلها ولا تأتى بشئ يؤلمه حتى وإن خلا من الفضائل ،ومن حق الزوج أن يطلق زوجته ، ولكن الزوجة لاتستطيع هذا لأى سبب .

وكانت تحرم من حق الحياة بعد ممات زوجها ؛ لاعتقادهم بأنها لاتقوى على الحياة بعد موته ، فكانت تقيد بالسلاسل وتحرق مع زوجها فى أتون[2] واحد .

وفى الصين : كانت البنت تعد عبئا على أبيها لأنه يربيها ولا يناله منها شئ بعد ذلك ، وكان إذا وُلد للأسرة بنات أكثر من حاجتها ، تركتهن فى الحقول ليقضى عليهن الصقيع أو الحيوانات المفترسة ، وإذا بشر الأب بمولد بنت حملها إلى السوق وباعها بأبخس الأثمان فإذا لم يجد المشترى وهبها لأول عابر سبيل أو قتلها .

وانتشرت عادة تكسيح أقدام الفتيات الصغيرات رغبة فى جعلهن عديمات الحيلة وقد سميت المرأة فى كتب الصين القديمة (بالمياه المؤلمة) لأنها تغسل المجتمع من السعادة والمال .

---

(١) حمورا بى : ١٩٧٢ - ١٧٥٠ ق . م ملك بابل كون إمبراطورية واسعة أشهر أعماله قانونه الذى يحوى ٢٨٢ مادة .

(٢) أتون : فرن .

وفى اليابان : كان تعليم المرأة يسير على مبادئ ثلاث : طاعتها لأبيها قبل زواجها ولزوجها عندما تتزوج ولابنها الأكبر بعد موت زوجها . وليس للمرأة حق فى الميراث ، ومن حق زوجها أن يطلقها إذا أسرفت فى الحديث أو ارتفع صوتها ، وإذا كان الزوج منحل الأخلاق فإن عليها أن تضاعف له الرحمة ، وعندما تتزوج الفتاة يلبس أهلها الملابس البيضاء وهى ملابس الحداد . وذلك لأنها ستصبح عبْدةً لحماتها فى بيت زوجها ، وإذا مات زوجها تحلق شعرها وتلبس الملابس الكئيبة .

وفى بلاد فارس : كانت البنت لاتملك حرية اختيار زوجها . وكان من حق الرجل أن يتنازل عن زوجته لرجل آخر فقير ، وكان هذا . فى نظرهم - من باب الإحسان .

وفى اليونان : كانت المرأة عديمة الأهلية . حتى فى العصر الذهبى للحضارة اليونانية[1] فقد كانت المرأة معزولة تماما عن المجتمع وكأنها من (سَقطِ المتاع)[2]. ولم يكن لها حق فى الميراث إلا إذا كانت هى الوارثة الوحيدة . وكانت تحل فى المنازل الكبيرة محلا منفصلا عن الطريق قليل النوافذ ، ومحروس الأبواب .

وعند اليهود : كان واجب المرأة هو القيام على تربية الأطفال ، وسلطة الزوج عليها غير محدودة ، وكان بعض طوائف اليهود يجعلون البنت فى مرحلة الخادم ، ولأبيها الحق فى بيعها ، وكانت تعتبر لعنة ينبغى التحرز منها ، وعدم ائتمانها على سر أو أمر .

وفى أوربا فى العصور الوسطى : كانت الزوجة - فى انجلترا خلال القرن الحادى عشر - تباع ، وللزوج أن ينقل أو يعير زوجته إلى رجل آخر لمدة محدودة ، وكثيرا ما تُزَفُّ إلى رجل لم تره من قبل ذلك لتسهيل المحالفات الحربية ، أو تسهيل صفقة ، أى أنها كانت تستغل كوسيلة لتسهيل المعاملات والاتفاقات .

(مقارنة بين كل ما سبق ، وما أقره الإسلام للمرأة يتضح كيف كان الإسلام فاتحة خير للمرأة ، حيث كرمها ، فجعل لها حق الحياة بكل صور الحياة الإنسانية ، من ميراث ، وتعليم وحق اختيار الزوج ، وحق العمل ، وحق التوقير والتكريم فى حال كونها أما أو زوجة ، أو أختا أو بنتا ، والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يؤكدان هذا) .

---

(١) هو العصر الذى ازدهر فيه الفكر اليونانى فى عهد الفلاسفة الأوائل مثل سقراط وأرسطو وأفلاطون وكان ذلك فيما قبل ميلاد المسيح .

(٢) (سقط المتاع) هو الشئ الحقير الذى إن ضاع لا يشغل المرء نفسه بالبحث عنه .

تاريخ البريد[1]
فى البلاد العربية

*****

إننا ننعم بمزايا البريد ، ونرى أثره الجليل ، وليس البريد وليد الحضارة الحديثة ، بل كان معروفا قبل الإسلام ؛ استخدمه الفرس والروم فى الوقوف على شؤون رعاياهم لاسيما أطرافها البعيدة ، وكانوا يقسمون الطرق مراحل ، يجعلون فى نهاية كل مرحلة رجالا وطائفة من الخيول والبغال المعَلَّمَة[2] ، فيركب الرجال ، ويوصلون الرسائل من قسم إلى مايليه ثم يعودون ، وهذا يوصلها إلى القسم التالى ، وهكذا .

فلما جاء الإسلام ، واتسعت رقعتُه رغب معاوية[3] فى الأخذ بهذا النظام ، واستعان على تحقيق رغبته برجال حاذقين من الفرس والروم ، فأدرك غايته ، واستطاع أن يَرْقُبَ حركاتِ أعدائه ، ويعرف أخبار الرعية والولاة .

وتبعه الخلفاء من بعده ، كان الوليد بن عبد الملك[4] أكثرهم عنايةً بالبريد ، ومبالغة فى الاستفادة منه ، حتى كان يستخدمه فى إحضار النفائس[5] من القسطنطينية إلى دمشق ، ومازال الأمر كذلك إلى أواخر الدولة الأموية ، ثم أهمل شأنه ، وانقطع سيره بين البلاد .

ولما ظهرت الدولة العباسية شغلت عنه بحروبها ومقاومة المناوئين[6] لحكمها ، ولكن الخليفة المهدى أعاد البريد حين أرسل ابنه الرشيد لمحاربة الروم ، فأحب أن يكون على علم بما يجرى بين الفريقين ، فرتبه بين قصره ومعسكر الرشيد ، ولما انتهت الحرب انتهى معها أمر البريد .

وفى خلافة الرشيد رجع البريد إلى ماكان عليه زمن الأمويين ، ولبث إلى آخر أيام المأمون ، وبعدها أهمل بسبب الثورات الداخلية ، وبسبب انصراف الخلفاء العباسيين عن شؤون الرعية .

---

(١) البريد : كلمة فارسية ، وأصلها (بريدة دم) أى : محذوف الذنب ؛ لأن البغال التى استعملت فى البريد كانت مقطوعة الذنب ، علامة لها . ثم سمى الرسول الذى كان يركبها «البريد» وكذلك سميت المسافة التى بين المحطتين «بريدا» ومقدارها ثلاثة أميال .

(٢) أى فيها علامة (والعلامة هى قطع الذنب) .

(٣) هو أول الخلفاء الأمويين . (٤) توفى سنة ٩٦ هـ .

(٥) النفائس : جمع (نفيسة) وهى الشىء الثمين .

(٦) المناوئين : جمع (مناوئ) وهو : المعادى .

ولما وليت الدولة الأيوبية شؤون مصر ، نظمت البريد وبقى طوال حكمهم وحكم الأوائل من دولة المماليك ، لاسيما الظاهر بيبرس ، فقد كان يملك مصر والشام وما بين حلب والفرات ، فاعتنى بالبريد أعظم عناية ، ووكل أمره إلى جماعة من خير الرجال علما وعقلا ونبوغا ، ودام البريد فى مصر والشام حتى غزا «تيمور لنك»[1] بلاد الشام ، فانقطع البريد منها ومن مصر .

وفى القرن التاسع عشر الميلادى أخذ الأوربيون يدرسون نظامه ، ويتقنون أساليبه وحذت الأمة العربية حذوهم ، حتى بلغت الخدمة البريدية فى عالمنا العربى نظامها الذى يسر أمر البريد على نحو لم يكن يتصوره السابقون .

وفى مستهل القرن العشرين أحسّت الأمم حاجة شديدة إلى التضافر وتعاون الحكومات على تنظيم خطط البريد ، ووضع قوانينه ، وتعميم فائدته ، فعقدوا لذلك مؤتمرا فى جنيف عام ١٩٠٠ ، لهذا الغرض .

ومع مسيرة القرن العشرين تطور شأن البريد ، مع تطور نظم وسائل المواصلات فقد هيأ تقدم هذه الوسائل ، أن تصل الرسائل من أدنى الأرض إلى قاصيها فى دقائق معدودة .

(١) تيمور لنك : فاتح مغولى غزا فارس وجميع روسيا والهند .

مكة المكرمة
هى مركز الكرة الأرضية (*)

*****

بقلم الصحفى : الأستاذ رجب البنا[1]

أكثر اللحظات إثارة في حياتى كلها ، كانت فى ليلة منذ سنوات فى مدينة الرياض حيث كنت فى مهمة صحفية ، التقيت خلالها (الدكتور حسين كمال الدين)[2] ودار بيننا الحديث فى كل وادٍ ، وفى تواضع وهدوء لم أرمثلهما فى حياتى أبدا ، قال لى : «لقد أجرينا بحثاً فى كلية الهندسة بجامعة الرياض ، استعنت فيه بالكمبيوتر ، وبمجموعة من الخبراء ، فأظهرت لنا نتائجه أن مكة المكرمة هى مركز اليابسة فى العالم ، وأنها أيضا مركز اليابسة فى العالم القديم - يوم بعث محمد ﷺ - قبل اكتشاف أمريكا واستراليا» .

عند هذا الحد لم أستطع أن أملك نفسى من الدهشة ، بل من الذهول ، وقلت له بإلحاح : أرجوك ، حدثنى بالتفصيل .. وما القيمة العلمية لما توصلتم إليه ؟.

ومضى الرجل - بأدبه وهدوئه - يحكى تفاصيل اكتشافه المذهل، وتبدأ قصة هذا الاكتشاف العلمى مثلما بدأت قصص معظم الاكتشافات العلمية بالصدفة المحضة ، ولكن بعد المصادفة جاء دور البحث العلمى الدقيق الذى اشترك فيه مجموعة من كبار الخبراء وأساتذة الجامعات لمدة سنوات ، استخدموا فيها مجموعة من الجداول الرياضية المعقدة ، وأعدوا برنامجا للكمبيوتر .

عندما بدأ الدكتور **حسين كمال الدين** ، بحثه كان هدفه مختلفا ؛ كان يجرى بحثا لإعداد وسيلة تساعد كل مسلم فى أى مكان فى العالم على معرفة وتحديد مكان القبلة ؛ لأنه شعر فى رحلاته العديدة فى مختلف دول العالم أن هذه هى

(*) بتصرف .

(١) نشر هذا المقال فى جريدة (الراية) القطرية بتاريخ ١٩٨٧/١٢/٢١ .

(٢) أستاذ فى علم المساحة . حصل على بكالوريوس الهندسة مع مرتبة الشرف من جامعة الرياض، ثم ماجستير المساحة التصويرية ، ثم الدكتوراة فى هذا العلم ، وكان عضوا فى لجان علمية دولية ، وله مؤلفات تعتبر من المراجع الأساسية فى المساحة والفلك والمساحة التصويرية ومساحة المناجم ، واستخراج الطاقة الكهربائية من المنخفضات ، وأبحاث أخرى تدرس فى كثير من الجامعات باعتبارها من الأبحاث ذات القيمة العلمية الكبيرة دوليا .

مشكلة كل مسلم عندما يكون فى مكان ليست فيه مساجد ، وربما لايوجد فيه مسلمون ، وكان قد صمم أكثر من جهاز صغير يستطيع المسلم أن يضعه في جيبه ويحمله معه فى أى مكان ليساعده على تحديد اتجاه القبلة، والأساس العلمى لهذه البوصلة تنازل عنه الدكتور حسين لكل شركة طلبت الاستعانة به ، وتم تصنيع هذه البوصلة اعتمادا على بحوثه حتى انتشرت الآن دون أن يذكر أحد مِنَ الناس ، من الذى كان وراء إنجاز هذا الحدث العلمى .

أثناء عمله ، أعد خريطة للكرة الأرضية ، لتحديد اتجاهات القبلة عليها ، وبعد أن وضع الخطوط الأولى فى البحث التمهيدى لإعداد هذه الخريطة ، ورسم عليها القارات الأرضية ، ظهر له أن موقع مكة المكرمة وسط العالم . وأمسك (فرجارا) وضع طرفه على موقع مكة على الخريطة ، ومرّ بالطرف الآخر على أطراف جميع القارات فوجد أن الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة توزيعا منتظما ، ووجد أن مكة المكرمة فى هذه الحالة ، هى مركز الأرض اليابسة .

وهنا سأل الدكتور حسين نَفْسَهُ : إذا كانت مكة المكرمة هى مركز اليابسة الآن فكيف كانت أيام بعثة الرسول ، حيث لم تكن قارَّتا أمريكا واستراليا قد اكتشفتا بعد؟

أعدّ (الدكتور العالم حسين كمال) خريطة للعالم القديم . وكرر المحاولة ، فإذا به يكتشف أن مكة هى مركز الأرض اليابسة بالنسبة للعالم القديم يوم بدأت الدعوة للإسلام .

وحين سيطرت الدهشة على الرجل بدأ بحثه من جديد ، برسم خريطة تحسب أبعاد كل الأماكن على الأرض من مكة المكرمة ، ثم وصل خطوط الطول المتساوية بعضها ببعض ؛ ليعرف كيف يكون وضع خطوط الطول وخطوط العرض بالنسبة لمكة ، وبعد ذلك رسم حدود القارات وباقى التفاصيل على هذه الشبكة من الخطوط، واحتاج الأمر إلى حلّ عدد من المعادلات ، وإجراء العمليات الرياضية المعقدة ، بالاستعانة بالكمبيوتر لتحديد المسافات والانحرافات المطلوبة ، كما احتاج الأمر إلى برنامج للكمبيوتر لرسم خطوط الطول وخطوط العرض للإسقاط الجديد، فأصبح سهلا أن يرسم دائرة مركزها مكة المكرمة وحدودها خارج القارات الأرضية الست ، ووجد أن محيط هذه الدائرة يدور مع حدود القارات الخارجية

ولاحظ أن خطوط العرض يتقاطع بعضها مع بعض ، وتدور حول مكة المكرمة وليس حول القطب الأرضى كما هو المعتاد فى الخرائط التى يدرسها العالم كله الآن .

وبعد أن استمعت إلى هذا العالم المسلم وبعد أن شرح لى اكتشافه بشكل بسيط ، قدم لى ثلاث مجلدات كبيرة ، وقال لى : هذه جداول البرنامج الخاص بالكمبيوتر . خذها ، فقد يحتاج إليها أحد فى إجراء دراسة للتأكد من نتائجنا ، ثم ختم حديثه بقولهَ : إننى بعد هذه الدراسة استطعت أن أفهم بعض آيات القرآن الكريم فهما جديدا ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ .

ولماذا سماها الله «أم القرى» .

وعرفت الحكمة الإلهية فى اختيار مكة بالذات دون سواها من المدن والقرى على الأرض كلها ليكون فيها بيته الحرام ؟ ولماذا اختار سبحانه وتعالى مكة بالذات لتكون مهبطا للوحى ، ومركزا تنطلق منه آخر الرسالات .

وصف الكتاب(*)

للجاحظ(١)

*****

الكتاب وعاء مُلئَ علما ، وظَرْفٌ حُشِيَ ظَرْفاً ، وإناء شُحِنَ مِزاحا وجِدًّا إن شئت كان أبْيَن من سَحْبَانَ(٢). وإن شئت كان أعْيَا من باقل(٣) ، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده(٤) وإن شئت ألهتكَ طرائفُه ، وإن شئت أشْجَتْك مواعظه ، ومَنْ لك بناطق أخرس ، وببارد حارّ ... وبميت ممتع ، ومن لك بشئ يجمع لك الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والخفئ والظاهر ، والشاهدَ والغائبَ ، والرفيع والوضيعَ ، والفثَّ والسمين ، والشكل وخلافَه ، والجنس وضدَّه .

ومتى رأيت بستانا يحمل فى رُدُن(٥) وروضةً تُقَلُّ فى حِجْر ، وناطقا ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء ؟ ومَنْ لك بمؤنس لاينام إلا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تهوى ؟ آمَنُ مِنْ الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر ولاأعلم جارا أبَرَّ ، ولاخليطاً أنصف ، ولا رفيعا أطوع ، ولا معلما أخضع ، ولاصاحبا أظهرَ كفاية ، ولا أقل إملالاً وإبراما(٦) ولا أحفلَ أخلاقا ، ولا أقلَّ خلافا وإجراما ، ولا أقلَّ غيبةً ولا أكثر أعجوبةً وتصرُّفاً ، ولا أقلَّ تصلُّفاً(٧) ولا أبعد مِنْ مِراءٍ(٨) ولا أترك لشغب ولا أزهد فى جدال ، ولا أكف عن قتال من كتاب .

(*) بتصرف

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر . الملقب بالجاحظ . لجحوظ فى عينيه ، ولد بالبصرة سنة ١٥٠هـ وتلقى العلم على شيوخ البصرة والكوفة ، وأتيحت للجاحظ فرصة الاطلاع على كتب الفلاسفة والأطباء ، وجممت ثقافته بين العربية واليونانية والفارسية ، وكان محبا للقراءة ، وللرحلة وذاع فضله وانتشر صيته بين الخلفاء والعامة ، ألّف من الكتب ثلاثمئة وستين مؤلفا فى شتى العلوم ، وتوفى سنة ٢٥٥ هـ فى أيام الخليفة المعتز بالله .

(٢) (سحبان) خطيب عربى ضُرب به المثل فى الفصاحة .

(٣) (باقل) رجل ضرب به المثل فى العجز عن البيان .

(٤) (فرائد) : جمع فريدة .

(٥) الرُّدُنُ : الكُمُّ

(٦) الإملال : الملل ، والإبرام : الضَّجَرُ .

(٧) التصلف : التملق والتكلف .

(٨) المراء : الجدال : (والمراء : مصدر . ماضيه : مارى ، ومضارعه : يمارى) .

قالوا فى الأدب والأدباء(*)

*****

قالت العرب : «عليكم بالأدب ، فإنه صَحْبٌ فى السفر ، ومُؤنس فى الوحدة وجمال فى المحفل ، وسبب إلى طلب الحاجة» .

قال ابن المقفع : « مانحن بطلب الحاجة إلى ما تتقوى به حواسنا من المطعم والمشرب ، بأحوج منا إلى الأدب الذى هو لقاح عقولنا ؛ فإن الحبة المدفونة فى الثرى لاتقدر أن تطلع زهرتها ونضرتها إلا بالماء الذى يعود عليها من مستودعها .

قال الأحنف بن قيس : «رأس الأدب المنطق ، ولا خير فى قول إلا بفعل ، ولا فى مال إلا بجود ، ولا فى صدق إلا بوفاء ، ولا فى فقه إلا بورع ، ولا فى صدقة إلا بنية» .

قال شبيب بن شبة : «اطلبوا الأدب فإنه مادة العقل ، ودليل على المروءة ، وصاحب فى الغربة ، ومؤنس فى الوحشة ، وَصِلة فى المجلس» .

قال الإمام على بن ابن طالب : «الأدب كنز عند الحاجة ، عون على المروءة ، صاحب فى المجلس ، أنيس فى الوحدة ، تعمر به القلوب الواهية ، وتحيا به الألباب الميتة وينال به الطالبون ما حاولوا» .

قال عباس العقاد : «إن شروط الأديب أن يكون صاحب موهبة فى نفسه وعقله لا فى لسانه فحسب ، هو الذى تسأل نفسك بعد قراءته : ماذا قال ؟ لا أن يكون سؤالك كله : كيف قال ؟

قال اسحاق الحصرى : « وهل يستغنى أهل الأدب ، وأُولو الأَرَبِ عن معرفة ظريف المضحكات وشريف الفاكهات ، إذا لاطفوا ظريفا ، أو مازحوا شريفا ؟

قال طه حسين : « كان أدب عبد العزيز البشرى مرضيا ، مُعْجباً لطبقات المثقفين جميعًا ؛ إذا قرأه الأزهريون أعجبوا به ؛ لأن فيه شيئا من الأزهر ، وإذا قرأه أبناء المدارس المدنية أعجبوا به ؛ لأن فيه روحا من أوربا ، وإذا قرأه أواسط الناس الذين ليسوا من أولئك ولا هؤلاء أُعجبوا به ؛ لأن فيه روحا من مصر ، وإذا قرأه أهل الشام والعراق أعجبوا به ؛ لأن فيه الروحَ العربيَّ الخالصَ القوى .

(*) بقلم الأستاذ أمين سلامة - الأهرام : ١٩٩٨/٣/٢٠ .

وقال جمال الدين الأفغانى : « الأديب فى الشرق يموت حياً، ويحيا ميتا» .

وقال البرتو مورافيا : «إن الأدب لاينبغى أن يعبر عن شخصية الأديب ، وإن النضج الفنى يبدأ دائما عندما يبدأ الصراع بين الكاتب وذاتيته ، وكلما انفصل الكاتب عن ذاتيته كان هذا دليلا على قدرته الفنية» .

قالت امينة السعيد : « الأديب المثالى من كان مرشدا للشعب ، لا مفسدا للعقول من أجل الشهرة والمال» .

وقال احد الحكماء : العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الطعام» .

مصر والعالم

*****

نعيش الآن عصر الانفتاح على العالم ؛ لأن البلد الذى ينكمش ويتقوقع حول نفسه يظل جامدا لا يتحرك ، ولا يتقدم ، وبمرور السنين يصير من المتخلفين ، فإذا صحا وجد نفسه قد فاتته مراحل كبيرة ليلحق بدول كانت أقل منه ، وخير مثل لذلك الفترة التى عشناها من سنة ١٩٥٢م إلى ١٩٨٠ حيث كانت مصر منغلقة على نفسها فإذا بها تتخلف كثيرا .

أما الآن فإن مصر تتجه إلى « العولمة » فى شتى المجالات خصوصا ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين .

وقد وجدنا العالم يتجه إلي التكتل والتجمع وخير تكتل ناجح هو الوحدة الأوربية التى قطعت شوطا كبيرا من النجاح ، ولم تقف مصر ساكنة ، وإنما أخذت تسير فى اتجاهات متعددة ، من موقعها الإفريقى حاولت أن تنفتح على الدول الإفريقية وقام وزير الخارجية بجولات ناجحة فى الكثير من الدول الإفريقية ، كان من نتائج هذه الجولات عقد معاهدات مع هذه الدول بعضها تجارى يعود على اقتصاد مصر وعلى البلاد الإفريقية بالخير ، فسهلت نقل البضائع من هذه البلاد وإرسال منتجاتها إليها، وكذلك ألغت الازدواج الضريبى بينها وبين هذه الدول ، وبعضها ثقافى يعود علينا وعلى هذه الدول بالنفع فشجعت على تبادل الزيارات الفنية والثقافية بيننا وبين هذه الدول ، كما شجعت على فتح أسواق للفيلم المصرى ، وللفرق الفنية ، وللكتب ، وللمنتجات التليفزيونية .

وبعضها تبادل الخبرات ، فمصر بمالها من خبرات واسعة فى مجالات التصنيع ، وبما عندها من عقول مبتكرة سوف تمد هذه الدول بما تحتاج إليه من خبراء وفنيين ليساعدوا هذه الدول على النهوض وعلى إقامة المشروعات المختلفة ، وهذا يعود علينا وعليهم بالخير الكثير ، ويتبع ذلك فتح أسواق العمالة فى هذه الدول التى قد تمتص الكثير من الأيدى العاملة ، وهذا سوف يسهم فى حل مشكلة البطالة التى تعانى منها مصر .

وبعضها عمرانى فقد استطاع قطاع البناء والتشييد أن يشق طريقه وبخطى ثابتة

واثقة فى هذه الدول فتقوم شركاتنا العملاقة بإقامة العديد من المشروعات الكبيرة فى كثير من دول إفريقيا .

ومصر بمالها من مكانة دولية مصدر جذب لكثير من أبناء هذه الدول فنرى طلابها يسعون للالتحاق بالجامعات المصرية خصوصا جامعة الأزهر التى تلعب دورا كبيرا فى جذب الطلبة والطالبات من الدول الإفريقية ليكملوا دراستهم فى مصر ، وقد أنشأت مدينة كاملة لاستقبال هؤلاء الطلاب ، وهى مدينة البعوث التى تضم بين جوانبها آلافا مؤلفة من طلاب الدول الإفريقية والآسيوية .

وبعضها سياحى ، فقد عقدت مصر الاتفاقيات السياحية بيننا وبين هذه الدول ، ويجد السائح فى مصر كل ما يريد ، فمصر ترحب دائما بالسائحين ، وتفتح كنوزها لهم من متاحف وآثار ومنتجعات يقضى فيها السائحون أوقاتاً جميلة للاستجمام والراحة وفى مصر كل مقومات السياحة فجوها معتدل ، وبها آثار لا توجد فى أى بلد فى العالم وهى شاملة الآثار الفرعونية ، والآثار الرومانية والآثار القبطية والآثار الإسلامية .

وهناك اتجاه لمصر وهو اتجاه عربى باعتبارها قلب العروبة النابض وواسطة العقد بين عرب المشرق وعرب المغرب ، وصلاتها بكل الدول العربية صلة الأخ بأخيه فلم تدخر جهدا فى مد يد المساعدة لكل هذه الدول فى اتجاهات شتى .

وتتبنى مصر سياسة السلام فى المنطقة الأمر الذى جعلها تمسك بخيوط المشاكل وتسعى لحلها ، فكل الأزمات التى مر بها العالم العربى كانت القاهرة هى التى عملت على مواجهتها بما يحقق الأمن والأمان لجميع الدول .

وهناك الدائرة الإسلامية ، ولمصر اليد الطولى فى توثيق عرا الصداقة بينها وبين هذه الدول ، ولنا أن نقول إن مصر فتحت نوافذها أمام العالم وسوف ترسل إشعاعها على كل دول العالم .

التلوث وكيف نواجهه ؟

*****

خلق الله الطبيعة ساحرة جميلة ، تزخر بنعم الله الكثيرة ، وإذا غضبت الطبيعة ، وأثارت العواصف والأتربة ، تأتى أمطار تغسل الأشجار والأزهار ، وتعيدها نظيفة طاهرة كما كانت .

وجعل الله الأمواج فى البحار تحركها حتى لا تصبح راكدة فاسدة ، وجعل الأنهار جارية لا تتوقف لأن السكون يفسدها ويجعل ماءها آسنا .

ولكن الإنسان ظلوم كفار ، فإنه يلوث هذه الطبيعة الجميلة بطرق مختلفة ، فمن ذلك تلوث الماء ، عن طريق إلقاء نفايات المصانع ومخلفات البيوت فى مياه النهر ، كذلك نرى الفلاحين يلقون الحيوانات النافقة فى مجارى مياه النهر من ترع وقنوات وبعد أيام تتعفن وتلوث المياه ، فإذا شربها الإنسان أو الحيوان فقد تسممه وتتسبب فى أمراض كثيرة تؤدى إلى الموت .

وأحيانا تقف المراكب الكبيرة على ضفتى النهر ، وهذه المراكب تستخدم كنواد ومقاه وملاه ، وهى تلقى بمخلفاتها فى مجرى النهر ، مما يلوثه ويصبح ماؤه ضاراً بصحة الإنسان والحيوان وبعض الصيادين ذوى الضمائر الميتة يصطادون الأسماك بأنواع من السموم التى تفتك بالسمك فيطفو على سطح المياه ، ويسهل الحصول عليه ، وأحيانا تترك بعض هذه الأسماك الميتة فتتلف وتصبح مصدر خطر كبير على الناس .

وهناك تلوث هوائى ، وله مصادر كثيرة من أخطرها أدخنة المصانع التى تنتشر فى الجو ، فإذا استنشقها الإنسان أو أى كائن حى فإنها تصيبه بالأمراض الفتاكة .

وبعض هذه المصانع يتكاثر منها غبار مثل مصانع الأسمنت ، وهذا الغبار ينتشر فى المنازل المجاورة وعلى أوراق الشجر وعلى الثمار مما يسبب أمراضا خطيرة ، وهذه المشكلة تواجه سكان عدد من الضواحى فى القاهرة مثل حلوان وما جاورها من ضواح أخرى .

وقد حاولت الحكومة تركيب فلاتر فى خطوط لتنقية الهواء ، ولكنها متعثرة فى هذا الأمر ، وما زال السكان يشكون ...

ومن ملوثات الهواء عادم السيارات وهى بالآلاف تسير فى المدن وترسل الموت فى كل مكان ، لأنها تملأ الجو بثانى أكسيد الكربون الذى يسبب للإنسان أبلغ الضرر .

وكذلك الطائرات النفاثة قد تخرج منها الوقود وهو غير محترق تماما فيلوث الجو ، وهى الآن تعد بالآلاف .

وكذلك المبيدات الحشرية التى ترسلها على الحيوانات الضارة على هيئة غازات ، فقد تضر بالإنسان وتلحق به أبلغ الضرر وحين يستخدمها الفلاح فى حقله ، لحماية زرعه من الحشرات والآفات الضارة ، فإذا أكلها الحيوان فإنها تؤثر عليه وعلى الإنسان ، فقد ثبت أنها تظهر فى الألبان ومشتقاتها ، وتصل إلى الإنسان وإلى الأطفال بخاصة .

وهذه الغازات المتصاعدة من الأرض تسببت في خرق طبقة الأوزون مما سمح للأشعة فوق البنفسجية أن تسقط علي الأرض وتصيب الإنسان فى جلده وفى عينيه، ويحذر العلماء منها : لأنها إذا زادت قد تحرق الأرض وتهلك الزرع والنسل .

والتفجيرات الذرية التى تحدث فى الكرة الأرضية يخرج منها إشعاع ضار بالإنسان وبالبيئة ، ولذلك تكونت جماعات لمواجهة هذا الخطر الداهم ، وتحاول كثير من الدول المتقدمة أن توجد الحلول لمقاومة خطر الإشعاعات النووية ، فهل تنجح الإنسانية فى صد هذا الخطر ؟!

وهناك التلوث الضوضائى ، وهو منتشر فى كثير من دول العالم وله مصادر كثيرة وهو يبدأ من صوت حفيف أوراق الأشجار ، إلى صوت الصاروخ في بداية إطلاقه إذ يرسل أصواتا تكاد تصم الآذان فضلاً عن انفجار القنابل وطلقات الرصاص .

وفى المدن نسمع أصوات أبواق السيارات ، كذلك مكبرات الصوت والتى تنتشر خصوصا فى الحفلات وفى الأفراح والمآتم ، وقد ثبت ضرر ذلك على الجهاز العصبى للإنسان ، وعلى صحته .

إذن كيف نواجه أخطار التلوث ؟

لابد من وقفة جادة وحازمة من الشعب ومن الحكومة : فعلينا أن نعود أبناءنا منذ نعومة أظفارهم على حب النظافة وألا يلقوا بالمخلفات فى الأرض ، وأن يحافظوا على نظافة الطريق والمدرسة والبيت ونعودهم الذوق السليم وحب الجمال والنظام ، وأن ينشروا الوعى الصحى والجمالى .

ومن جهة الحكومة فعليها عبء كبير وقد اهتمت أخيرا وعينت وزيرة لشئون البيئة حتى تصدر من القوانين ما يردع المخالفين ، وعليها أيضا أن تراعى عند بناء المساكن تخصيص مساحات كبيرة خضراء وأن تصلح مرافق الدولة من شبكات مياه وشبكات صرف صحى ، وأن تعنى بنظافة الشوارع والمصالح الحكومية ، وإلا تسارع بعمل ذلك ستكون العاقبة وخيمة .

عصر الانفجار المعرفى

*****

نعيش الآن عصر الانفجار المعرفى فكل يوم يكتشف الجديد فى شتى المعارف والعلوم ، وأخذ الإنسان يسعى وراء الاكتشافات الحديثة وقد سهل نشرها ، والإفادة منها وقد صدق الله العظيم حين قال : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤]فالإسلام يحث على العلم ويأمر العباد أن يتفكروا فى خلق الله ، وأن يضربوا فى الأرض ، ولم يحجر على عقل ولم يحرِّم التزود من المعارف .

وقد دخل العلم كل مجالات الحياة ، ومن مظاهر التقدم العلمى فى العمران الوسائل الحديثة للتشييد والبناء ، واستطاع العلم أن ينقل الإنسان من الكهوف والأكواخ فى الغابات إلى ناطحات السحاب وأراح الإنسان فهو يصعد أعلى الأدوار بالمصاعد وينظف مسكنه بالآلات المختلفة .

كذلك للعلم فضل كبير على صحة الإنسان فقد اكتشف الكثير من أسباب الأمراض المختلفة وعرف طرق الوقاية منها وعلاجها وهو يستخدم مختلف الأدوية ، واستطاع تسخير الذرة لخدمة الإنسان وعلاج أمراض السرطان وغيرها .

كذلك أشعة الليزر استخدمها فى علاج أمراض العيون وقطع فى ذلك أشواطا كثيرة .

إن العلم الآن هو أهم الأسس التى تقوم عليها نهضات الشعوب ورقى الأمم فوسائل الاتصال الحديثة الآن جعلت العالم قرية صغيرة تستطيع أن تتصل بأى مكان فى العالم وأنت فى غرفة نومك .

فالأقمار الصناعية تجوب السموات وفيها قنوات الإرسال الكثيرة تنقل الأخبار والحوادث والمباريات الرياضية والحفلات المختلفة .

وأصبح الانتقال أمرا ميسرا فى ساعات معدودات تصل إلى أقصى مكان فى الأرض بفضل الطائرات الأسرع من الصوت ، وكذلك تستطيع حمل الأثقال فى طائرات شحن معدة ذلك .

ومن أبرز وسائل الاتصال والتى خدمت العلم الحديث شبكات المعلومات أو ما يطلقون عليها « الانترنت » هذه الشبكات التى تخترق كل معارف العصر ، لتمد

المشترك فيها بما يريد من أخبار قديمة أو حديثة وسير للعظماء وأعمالهم ، وكذلك ما يتعلق بأحدث ما وصل إليه الإنسان فى شتى المعارف .

وقد أفاد ذلك الجامعات فالباحث يستطيع أن يحصل على المعلومات التى يريدها لبحثه أو رسالته الجامعية من ماچستير أو دكتوراه .

وهناك الكثيرون الذين يعتمدون على شبكات المعلومات هذه فى شتى نواحى الحياة ، فعن طريقها يعرفون أحوال الطقس ويستفيد الطيارون من ذلك والمسافرون على الطرق السريعة وكذلك السائحون يستطيعون معرفة أحوال البلاد التى يذهبون إليها وكل الأماكن التي سوف يزورونها ، كما يعرفون أسماء الفنادق التى سوف ينزلون فيها ويستطيعون أن يحجزوا فيها .

وهذا هو الجانب المشرق لشبكة المعلومات ، ولها جانب آخر إذ يستطيع بعض ذوى الضمائر الميتة أن يعرفوا عن طريقها أسرار بعض الناس ، كما يعرفون معلومات قد تسهل عليهم ارتكاب جرائم سرقة ، أو الاتصال ببعض الأشخاص ذوى الميول الشريرة ليساعدوهم فى ارتكاب جرائمهم .

وقد سمعنا أخيرا عن كشف المعلومات العسكرية عن طريق هذه الشبكات وأن لهذه الأجهزة فيروسات تصيبها بالتخريب والفساد .

وهكذا العلم سلاح ذو حدين ، ولقد صدق الله العلى العظيم حين يقول ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٨] .